



وحيد الدين خان

# حقائق فتن الحج

ترجمة : ظفر الإسلام خان



الْحَقِيقَةُ الْجَعْلُ

وحيد الدين خان

حقيقه الحج  
محمد

ترجمة: طفر الإسلام خان



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٨٧ هـ - ١٤٠٨

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

حمدًا لله وشكراً ...

والصلوة والسلام على خاتم المرسلين وإمام المتقين .

وبعد ...

فهذا كتاب في (حقيقة الحج) ، كتبه كاتب هندي مسلم كبير عرفه العالم العربي من خلال بعض أعماله التي قوبلت باستحسان ، وعلى رأسها كتابه المعروف (الإسلام يتحدى) ...

أما المسلمون في شبه القارة الهندية - جمع الله كلمتهم وأعزّهم - فيعرفونه جيئاً ، ومعظمهم يقرأون له مجلته الذائعة (الرسالة) سواء اتفقوا أم اختلفوا معه .... !

واليوم يقدم المؤلف الكبير الأستاذ (وحيد الدين خان) كتابه (حقيقة الحج) للمشتغلين بالدعوة الإسلامية والثقافة الإسلامية وللباحثين عن فهم عميق وواع للحقائق الإسلامية ....

فهذا الكتاب - الذي لا تزيد صفحاته عن مائة صفحة على حد التقرير - وقفة عميقة متأنية عند الركن الخامس من أركان الإسلام ، وهو الحج ....

إن هذه الوقفة لا تأخذ مكانتها وقيمتها من جانب أنها دراسة ملمة بالجوانب الفقهية بطريقة عميقة أو شمولية . كلا ... فالجوانب الفقهية في هذا البحث هي

الجوانب المذكورة في كل كتب الفقه بطريقة مبسطة وواضحة ... والمتخصصون في الفقه قادرٌون - بالتأكيد - على أن يقدموا دراسات فقهية في الحج أكثر إلماً وشمولًا وتحليلًا ... وترجحًا ... واستقصاء ! !

ولم تأخذ هذه الدراسة مكانتها من جانب أنها تاريخ موسوعي شامل للحج منذ إبراهيم عليه السلام وحتى اليوم .. فنمة دراسات تاريخية استقصت تاريخ الرحلة إلى الحج ، ووقفت عند المعابر الكبرى لتاريخ الحج ، بطريقة أشمل وأعمق مما قدمته هذه الدراسة ! !

لكن هذه الدراسة - مع ذلك - دراسة متميزة من جوانب أخرى كثيرة لا نعتقد أنها تقل أهمية عن الجانبيين الفقهى والتاريخى ...

لقد ركزت هذه الدراسة على جانب يفتقد المسلمين في كثير من الدراسات الإسلامية ، وحتى الذين يحاولون معالجة هذا الجانب فيما يدرسوه قد لا توافر لديهم القدرة على النجاح في المعالجة .... فما كل غواص قادر على صيد اللؤلؤ والوصول إلى الأعماق ....

لكن هذا البحث ، وهذا الباحث ، قد نجحا - إلى حد كبير - في معالجة هذا الجانب ، وفي الوصول إلى الأعماق ... إن جانب ( الروح ) أو ( الحقيقة ) هو الجانب الذي يتفرد به هذا البحث ... فروح الحج ، أو حقيقة الحج ... هو المخور الذي يدور حوله البحث ، وما الجوانب الأخرى في الحقيقة إلا وسائل لكشف هذه الروح ، أو لعلها لا تزيد عن كونها عناصر من عناصر هذه الروح ...

ومن هذا المنطلق ، ووصولا إلى هذه الغاية ، عالج الباحث ( رسالة الحج ) ، ونظر إليه على أنه ( صانع التاريخ ) وعلى أنه ( مؤسسة دعوية ) و ( وسيلة للوحدة ) و ( رحلة غير عادية ) قادرة على ( تجديد الإيمان ) ! !

ودعا الباحث إلى توظيف إسلامي للحج في سبيل تحقيق الوحدة الدعوية

وال الفكرية والشعرية لل المسلمين ، أو حسب تعبيره «تنظيم جديد للحج » ... ومن سبل هذا التنظيم الجديد - في رأيه - تسخير الحج كمركز للتخطيط العالمي للدعوة الإسلامية بحيث يعرض الناس من مختلف البلاد أحوال الدعوة في بلدانهم فيطلع الناس على تجارب المناطق الأخرى ويستفيدون منها ، ويدور الحوار حول الإمكانيات الجديدة للدعوة ، إذ المعروف من دروس التاريخ أن قوة الإسلام كانت مرتبطة بقوة الدعوة ، والحج وبيت الله الحرام علامتان على خطة دعوية عظيمة ، فإنما بنيت الكعبة في الصحراء لتكون مركزاً دائماً للهداية الإلهية ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي يَبْكُهُ مُبَارَّكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ وذلك بعيداً عن شوائب الحضارات ونفایات المدنیات والفلسفات .... وفي عصرنا الحديث ، وبعد أن فتحت الشورة العلمية - التي هي إسلامية الأصل - إمكانيات جديدة هائلة للدعوة يمكن أن تستخدم مؤتمر الحاج العالمي للتخطيط للدعوة على مستوى العالم أعظم من أي وقت مضى ، فنجعل منهج الفكر الإسلامي هو المنبع الفكري الغالب على العالم مرة أخرى كما كان في العصور الماضية ..

لكن ذلك رهن شرط ضروري - في رأى المؤلف ونحن معه - فهذا الشرط هو الأساس لتحويل مؤسسة الحج - حسب تعبير المؤلف - إلى مؤسسة عالمية للدعوة الإسلامية ...

إن هذا الشرط خلاصته ( إبقاء فريضة الحج بعيدة عن السياسة بصورة كلية ) فينبغي أن ننظر إلى المسلمين الذين يتجمعون للحج من زاوية أنهم جاءوا لأداء هذه الفريضة وحدها .. والطريق الصحيح للاستفادة من الاجتماع في هذه الفريضة أن نبعث في الناس روح الدعوة لكي يعودوا إلى بلدانهم دعاة إلى دين الله بدلاً من أن ينشروا هناك دعایات سلبية ضد بعض المسلمين ( ! )  
ويحکي المؤلف تجربة حجّة ( سنة ١٤٠٢ ) وكيف اشتبك معه ناس يوزعون

منشورات تسبح بحمد رئيسمهم ومنشورات أخرى تهاجم دولاً ورؤساء آخرين ..  
ولما قال لهم : إنكم تضيعون وقتكم الثمين وتسيئون استخدام أيام الحج  
أيضاً ... أخذنا يجادلون معه - بحجة لا تليق بأخوة المسلمين في الحج - ثم  
انصرفوا غاضبين !

٠ ٠ ٠ ٠

وقد عالج المؤلف معنى من أدق المعاني في الحج بطريقة توجب الوقوف  
عنه ... إن هذا المعنى هو المعنى التاريخي للحج ، فالمسلمون حين يقومون  
بناسك الحج إنما يعيدون - بطريقة عملية حية - التاريخ الإيماني الإبراهيمي على  
الأرض ، فيفارقون أوطنهم كا فارق إبراهيم الخليل وطنه ، ويمررون بكل ما مرّ به  
إبراهيم وولده إسماعيل ( عليهما السلام ) إلى أن يتبعوا إلى التلبية « لبيك اللهم  
لبيك » في اجتماع عرفات الأعظم ، ثم يرجمون الشيطان كـ رجم  
إسماعيل ... فكان الحاج يقول الله تعالى من خلال هذه الشعائر ( الأشياء  
الرمزية ) إنه لو اقتضت الضرورة مرة أخرى فإنه مستعد لكي يسير على نفس  
خطوات إبراهيم حتى ولو ذبح ابنه !

إن تكبير الحاج ( الله أكبر ... لا إله إلا الله ... الله أكبر ) من شأنه توليد  
نفسية معينة فيه ليعى أن العظمة لله وحده ، وكل جوانب العظمة الأخرى يجب  
أن تتحنى أمام عظمة الله الكبيرة .

وإن طواف الحاج حول الكعبة إنما هو إقرار عملي بأنه سيجعل نقطة واحدة  
محور كل جهوده ، وسيتحرك في دائرة محددة . هي دائرة الحنيفة السمحنة ، كما  
تطوف كل سيارات النظام الشمسي حول مركز واحد هو الشمس !  
والسعى بين الصفا والمروة يعلمنا أن يكون مسعانا داخل حدود معينة ، دون  
أن نتجاوز أو نفلت بعيداً عن دائرة إخواننا المؤمنين الآخرين !

.....

وهكذا يدور المعنى التاريخي الحى فى الحج مع كل الشعائر ، كما أن ( المعنى الاجتماعى ) يدور مع هذه الشعائر أيضاً ، وكما أن ( معنى الوحدة ) يدور كمعنى أساسى من معانى الحج البارزة ....

وقد أحسن المؤلف تصوير معنى الوحدة كما أحسن تصوير المعنى التاريخي ... فالذين يتخلون من الكعبة قبلة ليسوا هم من يصلون في المسجد الحرام فقط ، بل المسلمين جمِيعاً في شتى أقطار الأرض يتخلون من الكعبة قبلة لهم أيضاً ... وهم يقفون في كل أنحاء الأرض خمس مرات كل يوم حول الكعبة من جوانبها الأربع ... أى أن المسلمين يقيمون حولها دائرة كاملة على وجه الأرض ، فتكون الكعبة هي الوسط بينما المسلمين يؤدون صلواتهم حولها في دائرة من كل ناحية على وجه البسيطة .

وهذه ناحية اجتماعية عظيمة لا مثيل لها في آية جماعة دينية أو غير دينية في العالم ... ولو كان في المسلمين شعور حقيقي فوعوا هذا الدرس لوقعت النهضة الحقة ولانضموا جمِيعاً - بعيداً عن عوامل التمزق - إلى هذه الهيئة الاجتماعية العالمية المقدسة ....

إن الكعبة - بحق - هي رمز توحيد الله على الأرض ... وأيضاً : هي رمز وحدة المسلمين وهيئتهم الاجتماعية !

.....

ولم يغفل المؤلف الجوانب العاطفية في الحج ... فالحج - إلى جانب ما ذكرنا - علاقة بالله ، وشعائر تصل ما بين الخالق والخليق ، ورحلة إلى الله ... لاستئناف المسيرة على هدى وصيرة .. وهو عطاء يقدر عفو الله لا يقدر عمل الناس ، وهو تجديد للإيمان ، وهو تحقيق للتقوى والعلمة والأخلاق

الفاصلة ، وتدريب على تحجب الثقة والرفث والمراء والعنف ، وتعويذ على الانضباط وإنكار الذات ، والاندماج في الجماعة !

٠ ٠ ٠

إن ( حقيقة الحج ) حقيقة عظمى بلا ريب ! !

ولقد نجح المفكر الكبير ( وحيد الدين خان ) في تجلية كثير من جوانب هذه الحقيقة بأسلوبه الرائع ، وبثقافته العميقة الأصيلة والعصرية في سياق واحد ... وقد لا تكون مياليين كثيرة إلى ما أورده المؤلف عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه ، من أنه عندما حج قال : « أيقنت أن الحج أفضل العبادات » ، فلستنا نرى ذلك إلا بتأويلات كثيرة لكتبا - مع ذلك - نرى أن المؤلف قد استطاع أن يجسد لنا معانى كثيرة في الحج يجعل القارئ يشعر بأن الحج ( رحلة العمر ) وأنه ( من أفضل العبادات ) ، وأنه تذكير عظيم بقصة التوحيد ، وبرحلة الحنيفية السمححة على الأرض ، وبأنه - لو فهم حق الفهم - سبيل عظيم لتحقيق وحدة المسلمين ، ولازدهار الدعوة الإسلامية في العالم ، ولتحقيق سبل التقدم الإسلامي الشامل ... ولإعادة المسلمين إلى مكانتهم الصحيحة في الحضارة .... مكانة الأمة الوسط ... الأمة الشهيرة على الناس ... خير أمة أخرجت للناس ... أمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... أمة الوحدة والتوحيد ..

ظفر الإسلام خان

## الفهرس

٥	مقدمة
١١	الفهرس
١٣	<b>الفصل الأول : روح الحج</b>
١٦	مسيرة نحو الله
١٧	سيد العبادات
١٨	رسالة الحج
٢٠	بعض الجوانب
٢٣	حج مبرور
٢٣	قضية في حاجة إلى نظر
٢٥	<b>الفصل الثاني : الحج صانع التاريخ</b>
٣٥	<b>الفصل الثالث: أهمية الحج في الدعوة</b>
٣٧	تاريخ الحج
٤٠	الحج مؤسسة دعوية
٤١	الحج وسيلة للوحدة
٤٢	الحج عمل حي
٤٣	تنظيم جديد للحج
٤٦	شرط ضروري
٤٩	<b>الفصل الرابع : الجانب العاطفي في الحج</b>
٥١	شهادة علم الإنسان المعاصر
٥٣	شعائر الله
٥٦	علاقة بالله

٥٨	الراحة في المعاناة
٥٩	رحلة غير عادية
٦٠	العطاء بقدر الكفاية
٦١	بعض الانطباعات
٦٢	تجديد الإيمان
٦٥	<b>الفصل الخامس: الحج و الوحدة</b>
٦٧	المراكز العالمي للتوحيد
٦٨	إعلان عام
٧٠	أسلوب فطري
٧١	اجتماعية الحج
٧٣	تاریخ الحج
٧٥	مركز الوحدة
٧٩	<b>الفصل السادس: دروس التقوى والعلفة</b>
٨٢	مزيد من الاهتمام
٨٣	الخذر في الكلام
٨٤	اجتناب العنف
٨٥	حياة الانضباط
٨٥	إنكار الذات
٨٧	<b>الفصل السابع: حج رسول الله</b>
٩٨	دروس
١٠٢	خطبة حجۃ الوداع
١٠٧	<b>الفصل الثامن: مسائل الحج</b>
١١٢	زيارة المدينة المنورة
١١٣	محظورات الحج
١١٤	ترتيب مناسك الحج
١١٥	مصطلحات الحج
١١٨	آثار إسلامية ذات معانٍ تاريخية

الفصل الأول  
روح الحج

## الفصل الأول

### روح الحج

الحج ركن أساسى من أركان الإسلام وروحه الأصلية هي التقوى كسائر العبادات الأخرى .. إلا أن للحج نوعية خاصة ينفرد بها وهي أنه يعود في أصله إلى حياة أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام .

وهدف الحج هو أن يصل كل عبد من عباد الله إلى مقامات الحج مرة واحدة على الأقل في حياته ، إن استطاع إلى ذلك سبيلا ، فيقدم هناك دليلا على عبوديته الكاملة لله ، بمختلف الأعمال والشعائر ، وبالتالي يحاول أن يصبح ظاهره وباطنه بالصبغة الإبراهيمية الخيفية السمحاء .

وكان إبراهيم عليه السلام قد نادى في الناس بعد بناء الكعبة بأن يأتوا ويحجوا لبيت ربه .. ورحلة الحج هي تلبية هذا النداء الإبراهيمي ، وأصوات « لبيك اللهم لبيك » التي نسمعها في الحج هي ردنا على ذلك النداء الإبراهيمي ، ف فهي تعنى أن الحاج قد لبى النداء الإبراهيمي فجاء يحج لله مؤكدا بعمله هذا أنه مستعد استعدادا كاملا لتنفيذ كل أحكام الله .

ويعني الحج - لفظا - القصد أو الزيارة ، وهو يعني في المصطلح الإسلامي الشعيرة السنوية التي تمثل في قصد المسلم مكة المكرمة في الوقت المحدد ليطوف حول الكعبة ويقيم في ميدان عرفات ويأتم أعمالا أخرى معروفة بمراسيم أو شعائر الحج .

والحج عبادة جامعة ، فيه إنفاق المال ، ومشقة الجسد ، وذكر الله ، والتضحية في سبيله .. فالحج عبادة تشمله روح كل العبادات الأخرى بصورة أو أخرى .

ومركز أداء فرائض الحج هو بيت الله في مكة المكرمة . ويدركنا هذا البيت الإلهي بحياة إيمانية عظيمة عاشها عباد من أصلح عباد الله على وجه الأرض ... فهي تبدأ بتاريخ إبراهيم خليل الله وتنتهي بتاريخ نبى آخر الزمان محمد

صلى الله عليه وسلم . وبيت الله يذكرنا كيف يضحي عبد من عباد الله بكل ما لديه في سبيل ربه ، وكيف يصوغ حياته طبقاً لمرضاة الله وحده ، وكيف يسخر نفسه لأجل الرسالة الإلهية إلى أن تخين ميته ...

### مسيرة نحو الله

والحجج مسيرة العبد نحو الله ، وهو منتهى القرب الذي يمكن أن يسمو إليه العبد من ربه في هذه الحياة الدنيوية . فالعبادات الأخرى ذكر الله بينما الحج أبعد من ذلك قرباً .... ! وإذا كانت العبادات العامة عبادة الله على مستوى الغيب فالحج عبادة الله على مستوى الشهود ..

وعندما يقف الحاج أمام الكعبة فهو يشعر أنه واقف أمام رب الكعبة نفسه . والطواف حول الكعبة مظاهر لحقيقة أن العبد « يجد » ربه فيطوف حوله طواف الفراشة حول القنديل .. وعندما يمسك العبد بالملزم ويدعوه فكأنه أمسك بطرف من ربه فالتف به التفافاً وهو يريد أن يقول له كل ما في أعماقه .

ويتمتع الحج بكل هذه الخواص لأن شعائره تؤدي في مكان تنزل فيه التجليات الإلهية ، وهو المكان الذي اختاره الله ليكون مركز الرسالة الدينية لأعظم داع إلى حياة العبودية الكاملة لله وهو إبراهيم عليه السلام .. وهذا هو المكان الذي وقعت على ترابه الأحداث التي صاغت تاريخ بدء الإسلام .. وتنشر حوله آثار الدعوة الربانية المثالية التي تحققت قبل ١٤ قرناً بقيادة خاتم النبيين وأخر المرسلين .

وقد اكتسبت ديار الحرم أهمية غير عادية بسبب مثل هذه التقاليد والخصائص ، فظهرت بها بيئة روحانية وتاريخية من نوع خاص فلا يقى شخص يزورها إلا ويتأثر بها أعمق التأثير . وهو يعود بعد الحج كإعادة شخص قذر بعد أن يستحم في مياه نهر صاف .

ويتمتع الحج بأهمية غير عادية بين العبادات الإسلامية . وقد وصف الحج في أحد الأحاديث بأنه «أفضل العبادات» .. وهذه الأهمية الخاصة هي في «روح» الحج وليس في «مظاهره» . وبكلمة أخرى ليس الحج أن يذهب واحد منا إلى ديار الحرم ثم يعود ، بل الحج هو أن يتمتع الحاج بالكيفيات التي من أجلها فرضت هذه الفريضة . فكون الحج «أفضل العبادات» يعني أنه سيكون أفضل عبادة للعبد الذي يؤدى شعائره بروحه الحقيقة وأدابه الصحيحة . فالطعام يعطي القوة لمن يأكله ، إلا أن أفضل الأغذية لن تفيد من لا يأكلها بل يكتفى بالنظر إليها أو يفرغها فوق رأسه .. وهكذا لن يفيد الحج فائدة حقيقة إلا من يقوم بما ينبغي له بالفعل أن يقوم به في الحج .

### سيد العبادات

الحج - كما ذكرنا - لقاء بالله تعالى .. وتطرأ على الحاج كيفيات ربانية من نوع خاص عندما يصل إلى مقامات الحج بعد تحمل مشاق السفر . وهو يشعر كأنه انتقل من دنياه إلى الدنيا الإلهية ، كأنه يلمس ربـه ، ويطوف حوله ، ويسعى إليه ، ويسافر من أجله ، ويقدم القرابين (المهدى) أمامه ، ويرمى بالجمرات أعداءه ، ويسأله كل ما كان يتمنى أن يسألـه ، ويظفر منه - بمشيئة الله - بكل ما كان يتمنى أن يحصل عليه .

والكعبة علامـة من علامـات الله على وجه الأرض . فهـنـاك تـأـيـرـ الرواحـ البشرـية الضـالـلة لـتـسـكـنـ في رحـابـ رـبـهـ . وهـنـالـكـ تـنـفـجـرـ عـيـونـ العـبـودـيـةـ من الصـدـورـ المـتـحـجـرـةـ . وهـنـالـكـ تـشـاهـدـ العـيـونـ الـمـظـلـمـةـ تـجـلـيـاتـ اللهـ ..ـ ولـكـنـ هـذـاـ كـلـهـ يـحـدـثـ لـلـذـىـ يـذـهـبـ مـسـتـعـداـ وـبـاحـثـاـ .ـ أـمـاـ الـذـيـنـ لـمـ يـسـتـعـدـواـ فـحـجـجـهـمـ لـنـ يـعـدـوـ أـنـ يـكـونـ أـكـثـرـ مـنـ سـيـاحـةـ .ـ فـهـمـ لـاـ يـذـهـبـونـ هـنـاكـ إـلـاـ لـكـىـ يـعـودـواـ كـاـ ذـهـبـواـ .

وقد قال رسول الله : «الحج عرفة» أي أن الحج هو القيام في ميدان

عرفات . وهذا يدل على أهمية عرفات في شعائر الحج .. فميدان عرفات في أيام الحج يقدم منظراً تمثيلياً لميدان الحشر . فنشاهد أفواجاً بعد أفواجاً من عباد الله يأتونه من كل حدب وصوب في يوم معين .

وما أغريه من منظر .. فعل كل الأجساد لباس بسيط من نوع واحد . لقد فقد الكل صفاتة المميزة .. وكل الألسنة تردد كلمة واحدة : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك اللهم لبيك » . ويذكر الناظر الذي يشاهد هذا المنظر تلك الآية القرآنية التي تذكرنا بيوم الحشر : ﴿ وَنُفَخَّ فِي الصُّورِ إِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسَلُونَ ﴾<sup>(١)</sup> . فحضور عرفات يهدف إلى تذكير العبد بمثوله أمام الله يوم الحشر ، لكي يجرى على نفسه بصورة رمزية وتصورية ما سيجري عليه غداً . والحقيقة أن للحج معانٍ تميزه بطعم خاص .. ودرجة الحج إزاء العبادات الأخرى كدرجة الكعبة إزاء المساجد الأخرى .

### رسالة الحج

#### ما هو الحج ؟

الحج هو الخروج في سبيل الله .. هو الوصول بذلك الوقت والمال إلى المقامات التي هي شعائر الله التي ترتبط بها ذكريات عباد الله الصالحين . وكل شعائر الحج إظهار عملي لنشاط الإنسان من أجل الله وفي سبيله .. فتغفوf حياته حول الحقائق العليا ، وهو يصادق أولياء الله ، ويعادي أعداءه ، ويُجري على اليوم على نفسه كيفية المثلث أمام الله يوم الحشر ، ويصبح أخشى الناس الله وأذكراهم له ، ولا يقرّ له قرار في سبيل تحويل الإسلام إلى حقيقة عالمية ونشره على المستوى الدولي . والحج في ظاهره عبادة وقنية محددة بأيام ، ولكنه في حقيقته صورة للحياة الإيمانية بأسرها ، وهو إقرار للعبودية حتى النفس الأخير .. فالمؤمن

(١) سورة يس : ٥١ .

يعيش لكي يحج في سبيل ربه ، وهو يحج لكي يعيش من أجل ربه . فالحج تعبير عن حياة المؤمن وبماهه في وقت واحد .

والحج زيارة لله تعالى وهو منتهى ما يمكن للإنسان أن يقترب من ربه في الحياة الدنيوية ...

وقد جاء في القرآن عن حقيقة الحج : ﴿الحجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رُفِثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالٌ فِي الْحَجَّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الرِّزَادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولَئِكَ الْأَلْبَابُ﴾<sup>(١)</sup> .

ويعنى « الرفت » القول البذىء ، ويقارب معنى « الفسق » ما نقوله بالأدبية إن فلانا تعري من لباس الإنسانية ، أما « الجدال » فيعني المخاصمة . وهذه الكلمات الثلاثة تستخدم لبيان شرور اجتماعية تقع عموماً بواسطة الكلام ، كأن مجتمع مجموعة من الناس فيأتي شخص بذىء ويفسد اجتماعاً رزينا بكلامه الفاحش وأحياناً يقع للبعض شيء على غير العادة فيتعري من لباسه الوقور الظاهري ويقول الباطل ، وأحياناً يسيء شيء ما إلى بعض الناس فلا يتحمله بل يسرع في الخصم .

واجتئاع الحج تربية عملية للابتعاد عن هذه الشرور الاجتماعية . وترتبط بمقامات الحج ذكريات القدسية والاحترام فيؤتى بالمؤمن هناك ليكتمل تدريسه على اجتناب هذه الشرور . وهو يعيش في بيئة اجتماعية خاصة فينصرف بنفسه عن الفواحش والأنشطة السطحية إلى الأشياء الرزينة ، ويصل مزاجه على الثبات على الحق والصلاح في كل الأحوال ، فلا يخا胆 أخيه في الحياة الاجتماعية رغم التجارب المؤسفة التي تؤذى مشاعره .

(١) سورة البقرة : ١٩٧ .

وكلما اجتمع بعض الناس في مكان ما أو عاشوا معاً ثور شكاوى وخلافات بين بعضهم . ويقع هذا الاجتماع على مستوى عظيم في موسم الحج لأن عدداً ضخماً من الناس من مختلف الأنواع يجتمعون في مكان واحد وقت واحد . وتكون النتيجة أن الأذى يصيب الناس مرة بعد أخرى ، ولو بدأ الناس يخاصمون بعضهم بسبب هذه الشكاوى الفردية فسيقضي على جو العبادة ولن يتحقق هدف الحج . ولهذا حرم الجدال والخصام خلال الحج تحريراً مطلقاً .. وهكذا جعل الحج وسيلة لتربيه المسلمين على شيء عظيم لأن الخصام والجدال كا يطبلان الحجَّ ، فإنهما يبعدان المسلم عن الإسلام في الحياة العادمة كذلك .

وكثيراً ما يحدث أن يعتبر الإنسان شيئاً ظاهرياً علامه على التقوى ويظن باختيارة إياه أنه قد حصل على حياة التقوى وإن كان قليلاً حالياً من التقوى في حقيقة الأمر .. وهكذا ظن البعض من قدماء العرب أن عدم حمل الزاد خلال الحج علامه على التقوى فاهتموا بألا يحملوا معهم زاداً حلال الحج .. ولكن علاقة الزاد علاقة بالحاجة والضرورة ، وليس بالتقوى .

وبيني على الإنسان أن يستعد في مثل هذه الأمور حسب حاجته .. ولكن التقوى شيء مختلف عن هذا كلها ، فعلاقتها بالقلب . فلا يقبل الله عمل شخص ما ب مجرد أنه سافر في سبيله بدون الزاد أو لأنه أخضع جسده لمشقة عظيمة لا ضرورة لها ، فالله يتطلب تقوى القلب . والمطلوب من رحلة الحج أن توفر لصاحبه زاد التقوى . وهذا هو الزاد الذي سيفيده في رحلة الآخرة .. فيجب على مسافر الحج ، وكذلك على مسافر الحياة ، أن يجتنب الأمور الشهوانية ويبعد عن الجدال والخصام والأشياء التي لا يحبها الله .

### بعض الجوانب

يشاهد أكثر الحجاج وهم يرددون أدعية ملقة أو يقرأونها من كتب وكراسات

في أيديهم .. وإن كان هؤلاء يوفون بمقضيات الفقه الشرعية لأداء الحج إلا أن هذا النوع من تكرار الأدعية لا يفي بمتطلبات الذكر والدعاء المطلوبين في الحج . فيجب أن تمر على الإنسان خلال الحج مرات من الكيفيات الربانية التي وقعت على إبراهيم عليه السلام وعائلته ، فعندما يسعى الحاج ينبغي أن تفيض من لسانه أدعية كأن يقول : يا رب اجعل لي سعي فاتحا لعيون الخير التي ترويني إلى الآخرة مثلما جعلت سعي هاجر عيناً أبداً للبركة .

وقد كتب الشيخ سيد سابق أنه يستحب للحجاج :

« أن يكثر من الذكر والدعاء ويتحير منها ما ينصح له صدره دون أن يتقييد بشيء أو يردد ما ي قوله المطوفون . فليس في ذلك ذكر محدود أرمنا الشارع به . وما ي قوله الناس من أذكار وأدعية في الشوط الأول والثاني وهكذا فليس له أصل ، ولم يحفظ عن رسول الله ﷺ شيء من ذلك ، فللطائف أن يدعو لنفسه وإلحوانه بما شاء من خير الدنيا والآخرة »<sup>(١)</sup> .

ومسائل الحج المذكورة في القرآن والسنة قليلة لدرجة أنه يمكن إحصاؤها في بعض صفحات . ولكن الفقهاء وضعوا للحج مسائل لا حصر لها مما لا يمكن لشخص عادي أن يحيط بها ، تماماً كما فعلوا بالنسبة إلى العبادات الأخرى . والدليل الذي يقدم تأييداً لهذه الإضافات هو أنها تسهيل الأمر على الحجاج ، ولكن لا وزن لهذا الاستدلال ..

فالحقيقة أنه لا يمكن لأحد أن يصلى صلاته أو يحج حجه بمجرد قراءة الأحكام الفقهية . فلا يمكن القيام بهذا العمل إلا برأيته ، ولذلك لم يفصل رسول الله أحكام الصلاة بل قال : « صلوا كما رأيتموني أصلى » .. وهكذا قال للناس خلال حجة الوداع : « خذوا عنى مناسككم » .

(١) فقه السنة : ج ١ ص ٦٩٤ .

وهذه هي الطريقة الأصلية ، فقد أدى الصحابة صلواتهم تقليدا لصلاة الرسول ﷺ ، وقلد التابعون الصحابة وقلد تابعو التابعين ويستمر هذا العمل إلى هذا اليوم . أما لو كان عند الناس مسائل فقهية مكتوبة مفصلة فقط فما كان يسعهم أن يؤذدوا الصلاة الصحيحة في يوم من الأيام . ويعتبر الإمام أبو حنيفة أكبر الخبراء في هذا المجال ولكن ( وكيع ) يقول : قال لي أبوحنيفة « أخطأت في خمسة أبواب من المذاهب فعلمته حجاج » ( ذكره الحب الطبرى بالتفصيل ) .

ونحو ٩٥ في المائة من حجاج هذا الزمان من كبار السن وكثيرون منهم من الطاعنين في السن لدرجة أنه يصعب عليهم أداء المذاهب . ومن الأفضل مثل هؤلاء أن يرسلوا من يحج بدلا عنهم . و « حج البدل » الذى راج في هذه الأيام عن الموقى هو في الحقيقة مثل هؤلاء الناس . وقد جاء في الحديث عن الفضل بن عباس أن امرأة خشعته قالت : « يا رسول الله ، إن فريضة الله على عباده في الحج ، أدركت ألى شيخا لا يستطيع أن يثبت على الراحلة ، فأأحرج عنه ؟ قال : نعم . وذلك في حجة الوداع »<sup>(١)</sup> .

والصورة الأخرى لحج البدل هو أن يموت شخص وقد أوصى بأداء الحج عنه ، وهذه الصورة الأخرى استبطانية . وقد قال الإمام مالك : « إنما الحج عنه إذا أوصى ، أما إذا لم يوص فلا يحج عنه لأن الحج عبادة غالب فيه جانب البدنية فلا يقبل النيابة » .

والحج فرض على كل مستطيع مرة واحدة في حياته . وقد جاء في الحديث الشريف : « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة »<sup>(٢)</sup> وقد ورد عن عمرو بن

(١) رواه الجماعة .

(٢) متفق عليه .

العاصر : « لما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت رسول الله عليه صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلت : أشترط ؟ قال تشرط ماذا ؟ قلت : أن يغفر لي . قال : أما علمت أن الإسلام يهدم ما قبله ، وأن الهجرة تهدم ما قبلها ، وأن الحج يهدم ما قبله » <sup>(١)</sup> .

### حج مبرور

يظن كثير من الناس أن « الحج المبرور » مرادف لكلمة « الحج المقبول » إلا أن الحج المبرور يعني الحج الذي لا يخالطه إثم .. وقد قال الحسن البصري : إن الحج المبرور « أن يرجع زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة » . والحقيقة هي أنه لو أديت شعائر الحج بالشعور والعاطفة الصحيحين فلن يجتب المرء المعاصي خلال الحج فقط بل سيعود وقد كره قلبه كل معصية وشر ، ورغب في كل أنواع الخير .

### قضية في حاجة إلى نظر

ورد في إحدى الروايات أن رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : « الحاج في ضمان الله مقبلا ومدبرا » .. وهذا القول عن الحاج ليس من باب الأسرار والطلasm ، بل هو بالمعنى النفسي المعلوم .. لقد هيأ الله بعض الأسباب الخصوصية في الحج ، فما أن يعتزم شخص ما أن يخرج للحج حتى يتفجر في نفسه ينبعون الذكر الإلهي وتتوارد فيه رغبة خاصة نحو الله . وعندما يريد أحدهنا أن يسافر إلى نيويورك في سيكون متوجهًا نفسيا نحو « نيويورك » وستظل « نيويورك » مسيطرة على عقله حتى بعد أن يعود منها . وهكذا فإن الذي يعقد العزم على الحج سيشعر في داخله بكيفيات ريانية قبل وصوله إلى الديار المقدسة وحتى بعد عودته منها .

ولكن فوائد الحج هذه ليست من النوع « الآلى » فيحصل عليها كل حاج بالضرورة .. بل يجب أن يتتوفر الاستعداد المناسب لها في نفسية الحاج .. فكل الفوائد من هذا النوع تنحصر في استعداد المرء .. فهو يستفيد لو كان مستعدا

(١) رواه مسلم .

ومهينا نفسيا ، وهو لن يستفيد رغم مروره عبر عيون النور الربانية إن لم تكن نفسيته مستعدة للنهل منها .

وقد ورد في رواية عن أنس بن مالك : « يأتي على الناس زمان يحجّ أغنياء الناس للنزهة وأواساطهم للتجارة وقراؤهم للرياء والسمعة وفقارؤهم للمسألة » .

ورواية أنس هذه تحدّرنا كثيرا .. فيجب على مسلمي هذا العصر بصورة خاصة أن يحاسبوا أنفسهم في ضوئها ، لينظروا بما إذا كان حجّهم تنطبق عليه هذه الرواية .. فليفكّر الأغنياء بما إذا كانوا يحجّون بروح التقوى أم لأجل النزهة ؟ وليفكر عامة الناس بما إذا كانوا يحجّون للفوائد التجارية والدينية أم أنّهم يحجّون لنيل الفوائد الدينية ؟ وليتدبّر العلماء بما إذا كانوا يتوجّهون إلى الحجّ لنيل دروس العبودية أم لرفع شأنهم كزعماء وعلماء .. وليفكر عامة المسلمين كذلك بما إذا كانوا قد جعلوا حجّهم للسؤال من الله أم جعلوه وسيلة للتسلّول من البشّر .

الفصل الثاني  
الحج صانع التاريخ

## الفصل الثاني

### الحج صانع التاريخ

يقال إن الإمام أبي حنيفة كان يراوده تردد في تحديد أفضل العبادات الإسلامية .. وعندما حج قال : أيقنت الآن أن الحج أفضل العبادات ..

ومن الجوانب الخاصة بفضيلة الحج أنه يتعلق بمشروع إلهي عظيم فهو يذكرنا بالمشروع الذي بدأ بإبراهيم عليه السلام واكتمل بمحمد ﷺ . ومناسك الحج المختلفة هي مراحل هذا المشروع الإلهي التي يعيدها الحاج بصورة رمزية . فالحاج يفارق موطنه متوجهًا إلى الحجاز كما كان إبراهيم عليه السلام قد خرج من العراق متوجهًا إلى الحجاز . ويخلّى الحاج عن ملابسه العادمة ويلف حول جسده رداءين ، وهذا اللباس - الإحرام - مماثل للباس البسيط الذي كان إبراهيم وإسماعيل يرتديانه . وعندما يصل الحاج مكة ويطوف حول الكعبة فهو يقلد الطواف الذي قام به إبراهيم وإسماعيل توثيقاً للعهد الإلهي . وعندما يسعى الحاج سبع مرات بين الصفا والمروة فهو يقلد سعي هاجر بحثاً عن الماء في الصحراء . وعندما يذهب الحاج إلى منى وينحر قربانه فهو يعيد بصورة رمزية ما فعله إبراهيم حين استعد لحرابته ثم نحر نعجة بأمر ربها . وعندما يتوجه الحاج إلى الحجرات فيرمي الشيطان بالجamar فهو يكرر عمل إسماعيل عليه السلام الذي رمى الشيطان بالحمرات عندما حاول أن يغويه . ثم يجتمع كل الحجاج في ميدان عرفات .. وهذا هو الشكل النهائي لكلمات « لبيك اللهم لبيك » التي يرددوها كل حاج . وهنا يجتمع كل الحجاج في ميدان واحد مفتوح فيعاددون ربهم عهداً جماعياً بأنهم سيظلون ينذرون في حياتهم القادمة ما تعلموه خلال الحج وأنهم

سيعيشون مقلدين حياة أولئك الأبرار الذين يؤدى الحج تذكارا لهم . وقد وصف القرآن مناسك الحج بالشعائر أى العلامات .. وهى كلها الواقع التى وقعت لإبراهيم وأسرته خلال تنفيذ الخطة الإلهية التى سبق ذكرها . ويقلد الحاج هذه الواقع بصورة رمزية ويعاوه ربه بأنه - هو الآخر - سيصبح جزءا من هذا التاريخ .

فالحاج يعاوه ربه بأنه لو طرأ الحاجة فإنه سوف يخطم حياته القائمة ليتقدم نحو الحق ، وأنه سيرضى بترك الراحة والرفاهية و اختيار القناعة والبساطة ، وأنه سيسعى من أجل الله ، وسيطوف حوله ، وأنه سيرضى تقاليد الشيطان بالجمار ، وأنه سيدور حيثما دار به دين الله وسيستسلم لكل ما يقتضيه هذا الدين . فالحاج يقول لله تعالى بلسان عمله وحاله : إنه لو اقتضت الضرورة مرة أخرى لأجل الدين فإنه مستعد لكي يذهب إلى منتهى ما يمكن أن يذهب إليه أحد من البشر وهو أن « يذبح » ابنه ابغاء مرضاه الله .

وكانت رحلة إبراهيم عليه السلام من العراق إلى مكة والواقع الذى وقعت هنا بعد مجده خطة إلهية عظيمة الشأن بدأ تنفيذها قبل نحو ٢٥٠٠ سنة . وخلاصة هذه الخطة أن الشرك كان قد غلب على الفكر البشري منذ نحو خمسة آلاف سنة لدرجة أن شعبة ما من شعب الحياة لم تكن تخلو من أثر الشرك . واستمر هذا الحال جيلا بعد جيل ، وكانت النتيجة أن قام تسلسل فكري للشرك عبر الأجيال المتعاقبة . وكل مولود في تلك الأزمنة كان يرث عقلية الشرك وينشا عليها وهذا هو السبب في أن نداء الأنبياء بالتوحيد لم يكن يؤثر فيهم كثيرا .

و هنا وضع الله تعالى خطة لكي ينشأ نسل جديد من البشر بعيدا عن مؤثرات بيعة الشرك لكي يفكر بعيدا عن تسلسل الشرك الفكري .. وكان أنساب شئ لهذا مكان غير مأهول ، وبعيد عن المستوطنات البشرية . ولذلك اختيرت لهذا الغرض بلاد العرب الصحراوية الجدبنة التى كانت منقطعة عن العالم المأهول

حيثذاك .

وإنسان الأول المطلوب لإنشاء نسل جديد في هذه المنطقة الصحراوية الجدياء هو من يكون مستعداً لسكن فيها مدركاً أنه قد يدفع حياته ثمن العيش بها . وهنا رأى إبراهيم رؤيا بأنه « ينحر » ابنه .. وكان المقصود من هذا هو التأكيد مما إذا كان إبراهيم مستعداً لكي يتضمن إلى الخطة الإلهية بحيث يذهب بولده ويسكنه هناك حيث لا شيء غير الجبال الجدباء وصحاري الرمال .. فكان السكن في الحجاز حيثذاك مرادفاً للسكن في وادي الموت .

وقد ظل الحجاز غير مسكون في الأزمنة الغابرة لفقدانه الماء والخضرة . وكان الحجاز القديم حالياً من آثار حضارة الشرك لأنه كان حالياً من وسائل الحياة . وهذه الخاصية التي أخلت الحجاز القديم من المشركين هي التي أهلته لكي يُعَدّ به نسلٌ جديدٌ من الموحدين . وكان وضع إبراهيم المدينة على حلقوم ابنه إسماعيل إعلاناً بأنه مستعدٌ لهذه التضحية كل الاستعداد . ولذلك اختير إبراهيم وإسماعيل لهذه الخطة الإلهية ، وبدأ العمل لإعداد نسلٌ جديدٌ من البشر بإسكان إسماعيل وأمه في منطقة نائية من الحجاز القديم .

وكان إبراهيم عليه السلام قد دعا الله بأن يُظهر رسولًا من نسل إسماعيل .. وقد ولد رسول الله ﷺ نتيجةً لهذا الدعاء . ولكن ، كما هو معلوم ، هناك فاصل ٢٥٠٠ سنة بين هذا الدعاء وتحققه . والسبب في هذا التأخير هو أن نسلًا جديداً كان يُعَدّ خلال هذه المدة ليُفَكِّر بعيداً عن تسلسل الشرك الفكري ، ويكون مستعداً ومؤهلاً نتيجةً للتربية الصحراوية لكي يقف إلى جانب الرسول ويساعده على تكميل رسالته . وهذا السبب سميت هذه المجموعة بـ « خير أمة » . وهي أغرب أمة في التاريخ ، ف الصحيح أن جزءاً منها عادى الرسول في بداية الأمر إلا أنها وقفت إلى جانبه بكل قوتها عندما فهمت الأمر وأدركت الحقيقة .

وهذا النسل الذي نشأ بمحنة قد تداخلته فيما بعد مؤثرات الشرك من جراء تأثير البيئة المحيطة . ولكنه كان نسلا محفوظا نقيا في حقيقة الأمر . وكان الناس على الفطرة الصحيحة باستثناء بعض الأفراد القليلي الفهيم . وقد وقف أفراد من هذا النسل موقف العادة من الرسول في بداية الأمر ، إلا أن معاداتهم كانت تعود إلى الجهل . وعندما أدركوا أن محمدا رسول حقا وأن دينه صادق تحولت عداؤتهم إلى قبول وتحولوا إلى أصحاب له بكل ما لديهم من همة ونشاط .

وكانت الصفة المميزة للنسل – الذي أعده إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه رمزا – هي أنه كان ينظر إلى الأشياء نظرة حرة مستقلة ، وكان بإمكانه أن يعترف بمثل هذه الحقيقة . فكان هذا النسل يتمتع بكامل الكفاية للاعتراف بالحقيقة . ونورد هنا ثلاثة أمثلة مختلفة تؤكد هذه الحقيقة .. ويتعلق المثال الأول بالفتنة التي آمنت بالحق فور اطلاعها عليه ، والفتنة الثانية أنكرت النبوة في بداية الأمر إلا أنها بادرت إلى الاعتراف بها عندما فهمت الحقيقة ، أما الفتنة الثالثة فلم تعرف للحفاظ على رئاستها ومراكلها إلا أن هذه الفتنة أيضا لم تكن تخلو من هذه الصفات العالية .

١ - كان خالد بن سعيد بن العاص من أوائل الذين آمنوا برسول الله عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ . وجاء خالد إلى رسول الله ذات يوم وقال : « يا محمد إلام تدعونا ؟ قال : أدعونا إلى الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يضر ولا ينفع ولا يدرى من عبده من لم يعبده . قال خالد : فإنيأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله . فسر رسول الله بإسلامه وتغيب خالد ، وعلم أبوه بإسلامه فأرسل في طلبه من يبقى من ولده من لم يسلم ورافعا مولاه ، فوجدوه فأتوا به إلى أبيه ألى أحديحة فأبيه وبمحنة وضريه بمقرعة في يده حتى كسرها على رأسه ثم قال : اتبعت محمدا وأنت ترى خلافة قومه وما جاء به من عيب آهتمهم وعيوب من مضى من آبائهم ؟ فقال

خالد : « قد صدق والله واتبعه »<sup>(١)</sup> .

وكان خالد يقول بعبارة أخرى إنه عندما يقول محمد القول الحق فكيف يمكنه إلا يعترف برسالته ويؤمن بها .

٢ - ويتعلق المثال الآخر بسهيل بن عمرو الذي كان مندوب أعداء الإسلام عند صلح الحديبية .. وعندما بدأوا في كتابة المعاهدة بعد مفاوضات طويلة قال رسول الله ﷺ وهو يملّى نص المعاهدة : « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » ، فاعتراض سهيل بشدة على كلمة « رسول الله » وقال : « والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صدتناك عن البيت ولا قاتلناك » .

ونخبرنا التاريخ أن سهيل بن عمرو كان صادقاً كل الصدق في كلماته هذه وكان يعارض الإسلام بسبب جهله ليس إلا . أما حين أدرك سهيل فيما بعد أن الرسول ﷺ نبي صادق فإنه آمن به وسخر حياته كلها لأجل الإسلام . وقد وقف سهيل موقف صدق يذكره التاريخ حين همت قريش بالردة في أعقاب وفاة رسول الله ﷺ .

٣ - ويتعلق المثال الثالث بأبي جهل الذي لم يسلم ، إلا أنها نجد في سلوكه مثلاً قد لا نجده في أي مكان آخر . ومن وقائع العصر المكي :

« أن أبي جهل مرّ برسول الله عند الصفا ، فإذا وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ، والتضييف لأمره فلم يكلمه رسول الله ، ومولاه عبد الله ابن جدعان في مسكنه تسمع ذلك . ثم انصرف عنه فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة فجلس معهم . فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب ، رضي الله عنه ، أن أقبل متوجشاً قوسه ، راجعاً من قنص له ، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له ، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل

---

(١) الطبقات الكبرى لأبي سعد ، ٤/٩٤ طبعة دار بيروت ، ١٣٩٨/١٩٧٨ .

ذلك لم يبر على نادٍ من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم . وكان أعز فتى في قريش وأشد شكيمة . فلما مر بالملوأة — وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته — قالت له : يا أبا عمارة ، لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفاً من أى الحكم بن هشام ، وحدها هاهنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ﷺ .

« فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ولم يقف على أحد معدا لأبي جهل إذا لقيه أن يقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسا في القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ، ثم قال : أتشتمه وأنا على دينه ، أقول ما يقول ؟ فرد ذلك على إن استطعت . فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة ، فإني والله قد سببت ابن أخيه سبّا قبيحا »<sup>(١)</sup> .

ثم هناك تلك الواقعة المشهورة التي وقعت مع الإمبراطور الرومي هرقل الذي سأله أبasiyan عما إذا كان محمد يكذب قبل النبوة ؟ فقال أبو سفيان : « لا ». وقد علق ابن كثير بعد ذكر هذه الواقعة : « وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرا وزعيم المشركين ، ومع هذا اعترف بالحق »<sup>(٢)</sup> .

وهذا هو النسل الإنساني الذي أنشأه إبراهيم عليه السلام بـ « ذبح ولده » وتكونت « خير أمة » من صفة هذا النسل التي قبلت بدين التوحيد قبولا كاملا وقضت على عصر الشرك بتضحيات لا مثيل لها وفجرت عصر التوحيد .. واستغرق تنفيذ هذه الخطة ألفين وخمسمائة سنة ابتداء بإبراهيم عليه السلام وانتهاء بمحمد ﷺ . وكان مركز هذه الخطة تلك المنطقة من بلاد العرب التي

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، ٢٩١/١ - ٢٩٢ - ط . الحلبي ، ١٣٧٥/١٩٥٥ .

(٢) تفسير ابن كثير : سورة يونس : ١٦ - ج ٢ ص ٤١٠ .

تسمى بالحجاج ومركزها مكة . والحج إعادة رمزية لذلك التاريخ . وال المسلمين يعاهدون ربهم مرة أخرى عبر شعائر الحج بأنهم راغبون في الاشتراك في هذه الخطة الإلهية .. فهم يتقدّرون إلى أرض إبراهيم وإسماعيل رافعين شعار « ليك اللهم ليك » ، ويقلدون بصورة رمزية خلال أيام معلومات ما وقع عليهمما في حقيقة الأمر ، وهم يقولون لله تعالى إنه لو دعت الحاجة فهم مستعدون لإعادة ذلك التاريخ الذي وقعت أحدهاته على هذه الأرض ..

وقد استدار الزمان اليوم مرة أخرى فوصل إلى ما كان عليه في عصر إبراهيم عليه السلام . فكان ( الشرك ) يسيطر على فكر البشر في تلك الأيام ، أما اليوم فيسيطر ( الإلحاد ) على الفكر العالمي .. وإذا كان إنسان العصور الغابرة يفكّر في قالب الشرك فإن إنسان العصر الحاضر يفكّر في قالب الإلحاد .

والحقيقة أن قضية العصر الحاضر هي عين قضية العصر القديم ، مع فارق واحد وهو أن شاكلة الشرك كانت تغلب أذهان الناس في العصور الغابرة ، أما اليوم فتغلب عليهم شاكلة الإلحاد . وأهم واجب إسلامي اليوم هو تحطيم هذه الشاكلة الفكرية . وينبغي أن تسير حملة الإسلام اليوم على نفس المنهج الذي سارت عليه في قديم الزمان .

وينبغي أن يستعد البعض مرة أخرى للذبح . وينبغي مرة أخرى أن يسكن البعض أولاده في « الصحراء » لإحياء تاريخ الدين من جديد . وكان القضاء على عصر الشرك يتطلب التضحية بنسيل بشري ، واليوم نحتاج إلى تضحية مائة للفقضاء على عصر الإلحاد . وهذا هو أكبر درس للحج . و « الحج المبرور » هو حج من يعود من الأراضي المقدسة بهذا العزم ..

والحقيقة هي أن عمل الحاج لا ينتهي بعد الفراغ من شعائر الحج بل يبدأ عمله الحقيقي بعد الانتهاء منها ، فعودته من الحج بداية لرحلة أكثر أهمية ..

ويردد الحاج مرة بعد أخرى خلال شعائر الحج كلمات : « لبيك اللهم لبيك .. فما هي هذه الكلمات ؟ إنها كلمات معايدة بين الله وعبده .. وتقع المعايدة دائمًا في بداية أمر ما، فهي ليست نهاية له . وهكذا عبادة الحج ، فمن يعود بعد أداء مراسيم الحج فقد رجع بعد عقد معايدة مقدسة مع ربه . ويجب عليه ألا يخلد حياته على سابق عهدها قبل الحج ، بل يجب عليه أن يبدأ العمل وفق أحواله وكفايته طبقا لما عاهد ربه . فالعودة من الحج عودة من مقام العهد إلى مقام العمل . ولا تنتهي مسئوليات الحاج بعد الانتهاء من الحج بل تزداد وتتكرر في حقيقة الأمر .

وما هي معايدة الحج ؟ . إنها عزم على إعادة تاريخ معين ، وهي إقرار باستعداد العبد لتكرار الحياة الإبراهيمية . فحين شاهد إبراهيم عليه السلام أهل العراق « المتحضرين » لا يصغون لكلامه حول التوحيد والآخرة وضع خطة جديدة لعمله بأن أخضع نفسه وأسرته لأشد التضحيات فأنشأ نسلاً جديداً . لقد حول إبراهيم عمل الدعوة إلى خطة عظيمة . وقام بكل ما كانت هذه الخطة تقتضي منه من تضحيات .

وهكذا يجب على الإنسان أن يقوم اليوم بكل ما تقضيه الظروف وأن يظل صابراً على هذا الدرب إلى أن تخين منيته أو أن يصل إلى هدفه المشود . وكما كان الشرك يتمتع بالغلبة العالمية في عهد إبراهيم عليه السلام فالإلحاد يتمتع بالغلبة العالمية اليوم . وواجب العائدین من الحج اليوم أن يعملوا على القضاء على عصر الإلحاد وإحياء عصر التوحيد من جديد عملاً بالأسوة الإبراهيمية . وعليهم أن يعيشوا الأسوة الإبراهيمية مرة أخرى في هذا العصر ، ويجب عليهم أن يضحوا في هذا السبيل بكل ما تقتضيه الأحوال منهم ، فيجب عليهم أن يحولوا التضحية الرمزية إلى تضحية حقيقة .

إن الحج عزم على إعادة هذا التاريخ بصورة رمزية في أيام الحج ، وبصورة عمل مختلط في الحياة الحقيقة بعد انقضاء أيام الحج .

الفصل الثالث  
أهمية الحج للدعوة

## الفصل الثالث

### أهمية الحج للدعوة

كانت القدس مركز الهداية الإسلامية قبل ظهور خاتم النبيين ﷺ . وقد أصبح بيت الله الحرام بمكة المكرمة مركز الهداية في العالم بعد ظهور خاتم النبيين <sup>(١)</sup> . والحج من ناحية هو اجتماع الدعوة السنوي للمؤمنين برسالة الإسلام في كل أنحاء العالم .. فهم يجتمعون في الحرم في أيام معلومة لكي يقيموا علاقتهم بالله تعالى في بيته المقدسة ، ويعملوا على تقوية أواصر الوحدة بين المسلمين ويقلدوا مختلف مراحل حياة الداعي الأعظم إبراهيم عليه السلام بصورة رمزية ليعززوا على العيش دعاءً إلى دين الله في كل الأحوال .

### تاريخ الحج

كان الله قد جعل إبراهيم إمام الهداية حين قال : ﴿إِنَّى جَاعَلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾<sup>(٢)</sup> . أي أن الله تعالى قد اختاره لعمل دائم لكي يصل علم النبوة إلى الآخرين بدون انقطاع . وقد ظهر أثر هذا القرار الإلهي في الألفي سنة الأولى عبر أولاد إسحاق بن إبراهيم . فظهر عدد كبير من الأنبياء في هذا الفرع ابتداءً من إسحاق إلى المسيح عليهما السلام . وقد قام هؤلاء بإبلاغ الرسالة في فلسطين وما يليها من المناطق بصورة غير منقطعة . ثم انتقلت هذه الإمامة الدينية إلى الفرع الإسماعيلي من أولاد إبراهيم بعد المسيح عليه السلام ، فظهر فيه آخر الأنبياء الذي هيأ الله له

(١) انظر : ١٤٤ من سورة البقرة .

(٢) سورة البقرة : ١٢٤ .

غبة خاصة للحفظ الأبدي المؤكد على الكتاب الإلهي ، ولكن لا ينذر أو يتلوث الدين الإلهي مرة أخرى . وهذا هو الشيء الذي وصفه القرآن الكريم بإظهار الدين : «**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**»<sup>(١)</sup> . فكان المطلوب من عموم الأنبياء والرسل أن يبلغوا دين الله بينما كان مطلوباً من نبي آخر الزمان أن «**يُظْهِرَ**» الدين إلى جانب تبليغه .

وكان إنجاز هذا الهدف يتطلب وجود جماعة مساعدة تحلى بكل الصفات الإنسانية العالية الحميدة ، لكن تقف إلى جانب نبي آخر الزمان وتساعده على تحقيق إظهار الدين . ولإعداد هذه الجماعة أسكن إبراهيم عليه السلام زوجه هاجر ولده إسماعيل في مكة القديمة التي كانت تفتقر إلى أسباب الحياة لكن يظهر قوم عن طريق التوالد والتناслед في بيئة فطرية بعيدة عن «الحضارة» ، فيتمتع بكل الكفايات الإنسانية العليا ، ويفكر تفكيراً حراً مستقيناً ، ولا يكون هناك تناقض بين قوله وفعله ، ويكون مستعداً للتضحية بكل ما لديه لأجل الحق النظري .. وهم قوم يتمتعون بصلابة الجبال وسرعة الصحراء وعلو السماء .  
وحين برزت «**خَيْرُ أُمَّةٍ**»<sup>(٢)</sup> بعد التربية في هذه البيئة الصحراوية ظهر فيها ذلك النبي الذي دعا إبراهيم من أجله عند بناء الكعبة<sup>(٣)</sup> .

وكان الله تعالى قد أراد أن يظهر نبي في أولاد إبراهيم عن طريق سارة وولد هذا النبي في حياة إبراهيم وسي ياسحاق .. ومن ناحية أخرى دعا إبراهيم ربه بأن يجعل نبياً من أولاد ابنه إسماعيل ، فاستغرقت استجابة هذا الدعاء أكثر من ألفي سنة .. فما هو الفرق بين الحالتين؟ إن الفرق بينهما هو الفرق بين الدور

(١) سورة التوبة : ٣٣ .

(٢) سورة آل عمران : ١١٠ .

(٣) وهذا في قوله تعالى : «**رَبَّنَا وَابْنُنَا وَبَعْثَتْنَا لَهُمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَنْذِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتٍ وَّيَعْلَمُنَّاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَرَأَكُمْ إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**» القراءة : ١٢٩ .

التاريخي لكتاب الفرعين .. فكان النبي آخر الزمان يحتاج إلى صنف نقى حتى يقوم بدوره المطلوب واستغرق الأمر أكثر من ألفى سنة لإعداد فرع كهذا تحت قانون الأساب . وولد رسول الله طبقاً لخطة إلهية حين تكون هؤلاء القوم . ولكن كان ضرورياً في الوقت نفسه أن يستمر تسلسل الدعوة ريثما يجري هذا الإعداد ، ولذلك قرر الله تعالى أن يظهر الأنبياء في فرع بنى إسرائيل فاستمر تسلسل الأنبياء ، واحداً بعد الآخر ، لإبلاغ رسالة العبودية الإلهية إلى البشر ، وانتهت هذه الضرورة عندما حان موعد ظهور آخر الأنبياء .

ونخرج إبراهيم عليه السلام طبقاً لهذه الخطة من وطنه العراق فأسكن إحدى زوجتيه - سارة - التي ولدت له إسحاق ، بالخليل في فلسطين . ومن ناحية أخرى أُسكن زوجته الأخرى هاجر وولده منها إسماعيل بمكة في الصحراء العربية وبنى بها الكعبة بيته لله . وهكذا كانت فلسطين مركز الجزء الأول من خطة المداية العالمية التي تحفظت بواسطة إبراهيم ، بينما كان الحجاز هو الجزء الآخر منها .

وأصبحت فلسطين مركز المداية الإلهية في أول الأمر بعد وفاة إبراهيم عليه السلام . وولد بها كل الأنبياء ذلك العصر من إسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وداود وسليمان وعيسى وغيرهم عليهم صلوات الله وسلامه . وكان الاسم الآخر ليعقوب ، حفيد إبراهيم ، هو « إسرائيل » ، ولذلك عرف أبناء هذا الفرع بـ « بنى إسرائيل » . وحين أُصيب بنو إسرائيل بالاختطاف ولم يصلحوا أمرهم - بالرغم من تحذير الأنبياء المستمرة - عزّهم الله تعالى عن منصب حملة المداية السماوية ونقل هذا المنصب المقدس إلى الفرع الآخر - بنى إسماعيل - من أولاد إبراهيم . وحدثت هذا حين كان الفرع الآخر قد ظهر ليواصل حمل الرسالة الإلهية نتيجة عمل تاريخي دام ألفى سنة . وغير الله تعالى قبله العبادة كعلامة ظاهرة على هذا التغيير . فكان كل الأنبياء من بعد إبراهيم يتوجهون شطر البيت المقدس للصلوة ، والآن تُسيّح القبلة القديمة وجعلت

الكعبة قبلة للعابدين في كل أنحاء العالم .

### الحج مؤسسة دعوية

الحج إعادة للتاريخ الإبراهيمي . فالحاج يقلد بصورة رمزية مختلف مراحل الخطبة العالمية التي نفذت بواسطة إبراهيم عليه السلام ، معاهداً به بأنه سيحرّك نفسه للرسالة الإلهية التي سحرّ إبراهيم نفسه من أجلها ، وأنه سيظل يقوم بالعمل الدعوي الذي قام به رسول الله ﷺ خاتماً للأنبياء .

وكان إبراهيم عليه السلام قد خرج من وطنه لتنفيذ خطبة إلهية دعوية .. وهكذا يقول الحاج بلسان حاله إنه مستعد - هو الآخر - ليترك وطنه من أجل الدين . وكان إبراهيم عليه السلام قانعاً راضياً بحياة بسيطة ، وهكذا يعلن الحاج بواسطة الإحرام أنه سيكتفى بال حاجات الضرورية ليذكر نظره على المدف الأصلي . وكان إبراهيم عليه السلام قد أعلن ولاءه لله تعالى بالطواف حول البيت الحرام وهكذا يعلن الحاج ولاءه لله تعالى بالطواف حول الكعبة المعظمة . وكانت زوج إبراهيم قد سعت بين الصفا والمروءة بحثاً عن الماء ، وهكذا يُظهر الحاج بسعيه بين هذين الجبلين أنه مستعد للذهاب في سبيل الله إلى آخر الحدود ، ولو يحدث لأهل بيته ما حدث لهاجر وإسماعيل . وقد رمى إبراهيم الشيطان بالجمرات حين حاول أن يشيه عن عمل الله تعالى ، وهكذا يعلن الحاج برمي الجمار بغضه للشيطان ، وبأنه هو الآخر سيعامل الشيطان معاملة مماثلة لو حاول أن يغويه مثلكما حاول إغواء إبراهيم وكان إبراهيم قد استعد ليضحي بحياة ابنه ابتغاء مرضاته اللهم وهكذا يعلن الحاج - بتقديم الأضحية - بأنه مستعد للذهاب إلى أقصى حدود التضحية من أجل الدين . وكانت رسالة الدعوة التي قام بها إبراهيم عليه السلام تهدف إلى تذكرة البشر يوم الآخرة ، وهكذا يتجمع الحجاج في أرض عرفات ليذكروا يوم الحشر ويجعلوا هذه الحقيقة الكبرى جزءاً من وعيهم ويسخروا الآخرين بأمرها .. وكلما نادى الله إبراهيم وجده مستعداً لتبليبة دعوته ، وهكذا يقول

ال الحاج عند أداء كل شعائر الحج : « لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك » وبهذا يعلن الحاج أنه مستعد لتلبية نداء ربه في كل آن .

والحقيقة أن بيت الله الحرام مركز الدعوة الإسلامية ، وأن الحج هو المؤتمر العالمي للدعوة الإسلام . والأفعال التي تقوم بها في الحج هي كلها علامات على مراحل من حياة إبراهيم في سبيل الدعوة .. ومناسك الحج إعادة رمزية لكل الواقع التي وقعت لإبراهيم عليه السلام في مختلف مراحل نشاطه من أجل الدعوة . ويقلد الحاج هذه الواقع « شعارا » - أى رمزا وعلامة - في أيام الحج ، فيعقد العزم على أنه سيعيش داعيا كما كان إبراهيم عليه السلام داعيا إلى الرسالة الإسلامية .. وبعض هذه الأفعال مراحل مباشرة لحياة الدعوة بينما يعتبر البعض الآخر من هذه الأفعال مراحل غير مباشرة .

وتخبرنا حياة إبراهيم أن مناسك الحج كانت جزءا من حياته لأجل الدعوة ، أو كانت محطات على مسيرته من أجل الله . ولكن الحج وزيارة الكعبة قد أصبحا نوعا من نسخ ديني سنوي لدى مسلمي العصر الحاضر . ولو قام في المسلمين شعور بالدعوة وروح التبليغ لاكتسب الحج تلقائيا أهمية دعوية وتحول إلى مؤتمر سنوي للدعوة . ولكن حين تendum روح الدعوة بين المسلمين يتحول الحج إلى عمل بلا روح ، مثلما هو عليه الآن في الغالب . إنهم يرمون الشيطان الحجري بالجمرات ولكنهم لا يقومون بشيء لهزيمة الشيطان الحجي . إنهم يقلدون أعمالا رمزية ولكن تكاد تendum فيهم روح أداء الأعمال الحقيقة .

### الحج وسيلة للوحدة

إن أهم ما يميز مسلمي العصر الحاضر هو اختلافهم وانتشارهم . فما السبب في انعدام الوحدة الداخلية بينهم بينما توجد لديهم مؤسسة اجتماعية نادرة كالحج ؟ وكان ينبغي أن يكون الحج - بمئمره السنوي العالمي - وسيلة قوية لاتحاد

ال المسلمين تذيب كل الخلافات الأخرى . ويعد السبب في هذا إلى أن الحج قد أصبح تجمعًا تقليديا بدلا من أن يكون مؤتمرا حيًا لحملة رسالة عظيمة .

وتنطلب الوحدة أن يوجد بين الناس هدف مشترك يركّز أنظارهم وتوجهاتهم نحو الهدف الأعلى .. فتوجهات الناس تتشتت في قضايا تافهة عندما يختفي الهدف الأعلى عن الأنظار .. وهم لن يتحدون فيما بينهم مهما عقدت المؤتمرات الكبرى . والدعوة هي الهدف الأعلى للأمة المسلمة ، وستجه الأمة كلها إلى هدف أعلى لو بروزت فيهم هذه العاطفة الدعوية . وعندئذ سيصبح مؤتمر الحج وسيلة لتحقيق الوحدة العالمية بين المسلمين ، وبالتالي سيصبح الحج مركز الدعوة الإسلامية العالمية .

### الحج عمل حي

وكان رسول الله ﷺ قد أدى حجة الوداع سنة ١٠ هـ ، وألقى في التاسع من ذي الحجة خطبة تفصيلية في وادي عرفات أمام أكثر من مائة ألف من المسلمين . وتعرف هذه الخطبة بخطبة حجة الوداع ، كما أن حجه هذا يعرف بحجة البلاغ لأنه ﷺ أبلغ أمته كل التعاليم الإسلامية الأساسية في هذه الخطبة ، وأخذ منهم عهدا بإبلاغها إلى الآخرين . وقال في آخر الخطبة : « ألا فليبلغ الشاهد الغائب ، فربّ مبلغ أوعى من سامع . وأنتم تُسألون عنى ، ماذا أنت قائلون ؟ قالوا : « نشهد أنك قد أديت الأمانة وبلّغت الرسالة ونصحّت ، فقال رسول الله ﷺ بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس : « اللهم اشهد ، اللهم اشهد » .

وتوفي رسول الله ﷺ بعد شهرين من هذا . وكان الإسلام قد انتشر في بلاد العرب وحدهم في حياة الرسول ﷺ ، وخرج أصحابه الكرام إلى خارج بلاد العرب وجعلوا رسالة حياتهم تبلغ الإسلام ، وسخروا أنفسهم بكل ما يملكونه

لأجل نشر الدين الإلهي .. وكانت النتيجة أن انتشار الإسلام في جزء كبير من العالم القديم خلال خمسين سنة من وفاته عليه صلوات الله عليه .

والناس لا يزالون يؤمنون ويدعون انقطاع فريضة الحج بصورة منتظمة ، ويردد الإمام كل سنة كلمات مماثلة لما قاله رسول الإسلام قبل أربعة عشر قرنا ، ولكن كلمات هؤلاء الأنبياء لا تؤدي إلى نتيجة ما هذه الأيام .. فما الفرق بين الحالتين ؟ إن الفرق يعود إلى أن الحج كان عملا حيا في الماضي ، وقد تحول اليوم إلى عمل تقليدي . والذين كان رسول الإسلام يخاطبهم في حجة الوداع كانوا قد تجمعوا هناك لكي يسمعوا ويطيعوا . أما جموع الحجاج التي تتوجه إلى مكة والمدينة هذه الأيام فلا يهمها إلا أن تؤدي بعض الطقوس لتعود مرة أخرى إلى بلدانها فتعيش كما كانت تعيش من قبل .

ومن هنا ندرك أن إحياء الحج كفاعل مؤثر في الحياة الإسلامية اليوم يتضمن إحياء الحجاج . وما لم تُحي شعور الحجاج ، وبكلمة أخرى شعور المسلمين ، فستظل عبادة الحج بدون أثر تماماً كبنديقية فاسدة لا تطلق النار عندما يُضغط على زنادها .

### تنظيم جديد للحج

وإحياء الحج بروحه الأصلية يقتضى إحياءه كمؤسسة للدعوة ؛ فينبغي تسخير الحج كمركز للتخطيط العالمي للدعوة الإسلامية . وينبغي أن يعرض الناس من مختلف البلاد أحوال الدعوة في بلدانهم في هذه المناسبة العالمية ، فينبغي أن يطلع الناس على تجارب المناطق الأخرى ويستفيدوا بها . ويجب على خطب الحج أن تركز على بيان أهمية الدعوة وشرح إمكاناتها الجديدة ، وأن تعد مؤسسة الحج مكتبة دعوية بمختلف اللغات ليتم نشرها على المستوى العالمي ، الخ ..

وينبغي أن ندرك أن توجيه الحج على هذه الخطوط الجديدة لن يتم بدون توجيه

حياة المسلمين على خطوط جديدة .. فمسئولي المسلمين الأساسية هي الشهادة على الناس ، وعلاقتهم مع الشعوب الأخرى هي علاقة الداعي والمدعو . ولكن هذه الحقيقة قد غابت عن مسلمي العصر الحاضر . ووجب إحياء المسلمين كجماعة داعية لكي يتم إحياء الحج كمؤسسة للدعوة ، ويجب إقناع المسلمين بأن يُنهوا أنشطتهم القومية في كل أنحاء العالم التي تحول دون قيام جو الداعي والمدعو بينهم وبين الشعوب الأخرى . ولو لم يتتوفر مثل هذا الجو بينك وبين الشعوب الأخرى فمن ستدعوا ومن سينصت إلى دعوتك ؟

ثم يقتضى هذا الهدف أن نقيم جامعات من الطراز الأعلى وتكون منها جهاً وأنظمتها موجهة للدعوة بصورة كلية ، وأن تقام مؤسسات تربى الدعاة تربية دعوية صحيحة ، وأن تنشأ مكتبة تخلق بين الناس العقلية الدعوية وتسلحهم بمعلومات الدعوة . بل ويفتضي هذا الهدف أن ننشئ من جديد المكتبة الإسلامية الأساسية لأن كتب التفسير والسيرة التي ألفت في العصر الحاضر قد كتبت بداعٍ رد الفعل على وجه العموم .. فقد ظهرت هذه الكتب رداً على حملات الشعوب الأخرى الفكرية والعملية ، ولم تظفر لأجل الدعوة إلى الإسلام بصورة إيجابية .

ولو عدث بخيالتك إلى الوراء ، إلى بدء العصر المكي فسترى رسول الإسلام يطوف حول الكعبة وحيداً . فكان للإسلام تابع واحد في العالم كله .. أما اليوم فستشاهد جموعاً غفيرة كل يوم تطوف حول الكعبة ، ثم ترى الجموع تتقاطر إلى مكة من كل أنحاء العالم في أيام الحج لدرجة أن المسجد الحرام يضيق بهم كل سنة على توسعه المستمرة . فكيف تحققت هذه الكثافة ؟! والرد هو أن هذا تحقق بالدعوة . فالحقيقة هي أن مؤتمر الحج العالمي مظاهرة سنوية لقوة الدعوة الإسلامية ، وهو يخبرنا بأن الله تعالى قد أودع أسرار كل الرق والعظمة في قوة الدعوة الإسلامية .. فنجاة أهل الإسلام دنيوياً وأخروياً رهن بقيامهم بهذا

الواجب . ونعرف من دروس التاريخ أن قوة الإسلام كانت دائماً في دعوته . صحيح أن الإسلام لم يتمكن في بدايته من التأثير في عوام الناس بمكة إلا أن كل الأفراد ذوى القيمة ، الذين أصبحوا فيما بعد أعمدة التاريخ الإسلامي هم أولئك الذين وجدهم الإسلام في بداية العصر المكي . وهذا يعود إلى الدعوة الإسلامية وحدها لأن الإسلام لم يكن يمتلك قوة ما غيرها حينذاك . ورجال مكة الذين أسلموا فيما بعد هم أيضاً تأثروا بأحقية الإسلام الفكرية مثل عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما .

واستحكم أمر الإسلام في المرحلة الثانية أي في العصر المدنى بواسطة الدعوة نفسها ، فلم يغزها الرسول ولم يفتحها عسكرياً .. بل آمن البعض من أهل المدينة بالإسلام ورجعوا دعاة إلى الإسلام فبدأوا يدعون الناس بأسلوب بسيط<sup>(١)</sup> .. ونتج عن هذا دخول الناس أزواجاً إلى الإسلام إلى أن أصبحت المدينة المركز الفكري والعملى للإسلام .

وبعد قرون واجه الإسلام مشكلات المغول والتنار .. فجاءت هذه الشعوب الوحشية متحطية خيولها بالسيوف والرماح فزحفت على البلاد الإسلامية ففتحتها وخرّبتها وأزالـت مراكـز قوتـها حتى بدا للناس في ظاهر الأمر أن تاريخ الإسلام سيتهـى بهذه الهجمـات كـما انتـهى من قبل تاريخ حضـارات كـبـرى . ولكن هناـلـكـ بـرـزـتـ قـوـةـ إـسـلامـ الدـعـوـيـةـ فـحلـتـ المشـكـلـةـ كـلـهاـ بـأنـ أـصـبـحـتـ هـذـهـ الشـعـوبـ الفـاتـحةـ جـزـءـاـ مـنـ إـسـلامـ .

والـحجـ وـبـيتـ اللهـ عـلامـتانـ عـلـىـ خـطـةـ دـعـوـيـةـ عـظـيمـةـ ، فـعـنـدـمـاـ لـمـ يـسـمـعـ صـوتـ إـبرـاهـيمـ عـلـيـهـ السـلـامـ فـيـ مـنـاطـقـ الـعـرـاقـ وـالـشـامـ وـمـصـرـ «ـ الـمـحـضـرـةـ »ـ ، أـسـكـنـ أـسـرـتـهـ - بـأـمـرـ اللهـ - بـمـكـةـ وـبـنـيـ بـهـ الـكـعـبـةـ لـتـكـونـ مـرـكـزاـ دـائـماـ لـلـهـدـاـيـةـ إـلـاهـيـةـ ﴿ـ إـنـ

(١) بالإضافة إلى جهود الداعية مصعب بن عمير .

أول بيت وضع للناس للذى يبكة مباركاً وهدى للعالمين <sup>هـ</sup><sup>(١)</sup> .

ويروى عمرو بن عوف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الدين ليأزر إلى الحجاز كما تأزر الحياة إلى جحرها وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأروية من رأس الجبل . إن الدين بدأ غريباً ويرجع غريباً ، فطوى للغرباء ، الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدى من سنتي » <sup>(٢)</sup> .

وهذا يعني أنه كما كان الحجاز مركز الدعوة الإسلامية في حياة الرسول ﷺ فكذلك سيصبح الحجاز مركز إحياء الدين الإلهي حين يختفي أثره من حياة الناس . فالحج مقام العبادة الإلهية كما هو مركز الدعوة إلى دين الله وتجديده . وتفتضي الحاجة أن نحيي الحج ومركز الحج مرة أخرى من هذه الناحية .

وقد فتحت الثورة العلمية كثيراً من الإمكانيات الجديدة . ويمكن نتيجة لهذه الإمكانيات أن نستخدم مؤتمر الحج العالمي لأجل التخطيط للدعوة على مستوى أعظم من أي وقت مضى ، فنجعل منهج الفكر الإسلامي هو المنبع الفكري الغالب على العالم مرة أخرى تماماً كما كان في العصور الماضية .. هذا هو المعنى الذي يعبر عنه القرآن الكريم بكلمات « إظهار الدين » و « إعلاء كلمة الله » ، ولا يتحقق هذا المدف إلا بإحياء أهمية الحج الدعوية مرة أخرى .

### شرط ضروري

هناك شرط ضروري لتحويل مؤسسة الحج إلى مؤسسة عالمية للدعوة وهو إبقاء فريضة الحج بعيدة عن السياسة بصورة كلية .

وقد أديتُ فريضة الحج في سبتمبر سنة ١٩٨٢ .. ورأيت ذات يوم ، وأنا في بيت الله الحرام ، أن أناساً من بلد معين دخلوا المسجد الحرام بدأوا يرفعون

(١) سورة آل عمران : ٩٦ .

(٢) أخرجه الترمذى : أبواب الإيمان ، باب بدأ الإسلام غريباً .

شعارات بحياة زعيم بلدتهم . فتجمع حوصلهم كثير من الحجاج وبدأت بينهم مناقشات خلافية .. واستمرت هذه المناقشات فترة طويلة .. وجّه بيت الله هو جو الذكر والعبادة ولكن هذه الجهة حوكّته إلى جو النزاع السياسي !

وحدثت هذه القصة في المدينة أيضا .. وكانت أقيمت بأحد الفنادق في المدينة ، وهنا جاء بعض الشبان إلى غرفتي وكانت لديهم كتيبات مطبوعة بالإنجليزية والعربية .. وكانت هذه الكتيبات تحتوى على هجوم على حاكم بلد إسلامي معين ، وقدم هؤلاء الشبان هذه الكتيبات إلى فقلت لهم : إنكم تضيّعون وقتكم الثمين وتسيئون استخدام أيام الحج أيضا .. واستمر هؤلاء الشبان يتجاذلون معى بعض الوقت إلى أن انصرفوا غاضبين .

وقد أصبح هذا الاتجاه خطيراً في الزمن الحاضر ، فتتّظر بعض المنظمات والحكومات إلى الحج من زاوية أنه تجمع عدد كبير من المسلمين في وقت واحد ومكان واحد ، ولذلك تريد هذه المنظمات والحكومات أن تستخدمه لأهدافها السياسية المحدودة .. ولكن هذا الأسلوب خاطئ تماما ، وهو يعارض أهداف الحج بصورة كلية . فينبغي أن ننظر إلى المسلمين ، الذين يتجمّعون للحج ، من زاوية أنهم جاءوا لأداء هذه الفريضة وحدها . والطريق الصحيح للاستفادة من هذا الاجتماع العالمي هو أن نبعث في الناس روح الدعوة لكي يعودوا إلى بلدانهم دعاء إلى دين الله بدلا من أن ينشروا هناك دعايات سلبية ضد بعض المسلمين . إن الحج قوة عظيمة ويمكن استخدامها لأجل الدعوة الإسلامية العالمية بطريقة مؤثرة للغاية ولكن بشرط ألا يكون مسرحا للخلافات بين المسلمين .

الفصل الرابع  
الجانب العاطفي في الحج

## الفصل الرابع

### الجانب العاطفي في الحج

قال الله تعالى في القرآن الكريم : « وما خلقت الجنّ والإنسَ إلَّا يعبدون »<sup>(١)</sup> . ونعرف من هذا أن عاطفة عبادة الله قد أودعت في النفس الإنسانية بصورة جبلية .. فليس على الإنسان أن يعبد الله مراعاةً للواقع فقط بل فطرته هي الأخرى تطالب بذلك لأن عبادة الله هي من صميم الطبيعة البشرية . هذا هو السبب في أنه لا يوجد شيء يبعث في الإنسانطمأنينة والسكنية الحقيقية مثل عبادة الله : ﴿ أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَعْمَلُنَّ الْقُلُوبُ ﴾<sup>(٢)</sup> .

فكمما أن الطفل الصغير يلتجأ إلى أمه بصورة جبلية فكذلك تقتضي جبلة الإنسان أن يلتجأ إلى ربه . وليس بمقدور الإنسان أن يغير من شخصيته الداخلية ، وكذلك ليس بمقدوره ، كذلك ، أن يطرد فكرة الله من قلبه ومخه .

#### شهادة علم الإنسان المعاصر

وقد أثبتت علم الإنسان المعاصر هذه الحقيقة بصورة علمية .. وقد درس خبراء علم الاجتماع الحديث المجتمع البشري بعمق . ومن أهم الحقائق التي ظهرت عقب دراسة المجتمعات البشرية من العصور الغابرة إلى اليوم أن الإنسان ظل مؤمناً بالله بالرغم من كل التطورات والتغيرات التي مرت بها . فالإيمان بالله والدين جزء لا يتجزأ من الفطرة البشرية .. ونقل فيما يلي فقرة من دائرة المعارف الأمريكية<sup>(٣)</sup>

(١) سورة الذاريات : ٥٦ .

(٢) سورة الرعد : ٢٨ .

(٣) دائرة المعارف الأمريكية ط . ١٩٦١ ، جـ ٢٣ ، ص ٣٥٤ .

## حول خلاصة بحوث علم الإنسان المعاصر :

« كان الإنسان مؤمناً بالآلهين بدرجات متفاوتة منذ بداية التاريخ البشري ، فكان دائماً يؤمن بيده أو بعده آلة طالباً الحماية . وكانت هذه الآلة مصنوعة في بعض الأحيان من حشب أو حجر ، كما أنها اخذت في أحيان أخرى أشكال حيوانات أو زواحف أو حيوانات مخيفة تسعى إلى مص دماء الذين يعبدونها . ولكن أيا كانت هذه الآلة فقد عبدها الإنسان لأن الدين - المتمثل في عبادة قوة خارقة للطبيعة - جزء لا يتجزأ من نسيج الطبيعة البشرية » .

والحقيقة أن الشعور بالله كامن بصورة جبلية في الفطرة الإنسانية ولكنه شعور إجمالي . وعندما لا يهتمي الإنسان إلى الإله الحقيقي فهو يتوجه إلى عبادة الآلة التي تصنعنها أوهامه . وستجد الفطرة البشرية سكينة لهذه العاطفة الفياضة في عبادة الله وحده الذي لا شريك له لو تيسر لها الاهتداء إلى رسالة نبي من أنبياء الله أما لو لم تظفر بالهدىانية النبوية فستبعد آلة باطلين لتسكين هذه العاطفة بصورة اصطناعية .

والمقصود الأصلي للإنسان واحد لا غير ، وهو خالقه ومالكه . وهذا المقصود الأصلي جزء عميق من فطرة الإنسان .. ولو أنتصر الإنسان إلى طبيعته فإنه سيهتمي إلى الله ، وهو سيشعر به في نبضات قلبه .. فهذه الفطرة « لاشعور » الإنسان ، والرسول ينقل الإنسان من هذا اللاشعور إلى مستوى « الشعور » . ولكن الإنسان مخلوق من نوع معين ، فلا تكفيه المعرفة الغبية بل هو يريد أن يكتشف الله بصورة حسية أيضاً فيدرك الله إدراكاً محسوساً . ولكن العائق هنا هو أنه لا يمكن للإنسان أن يدرك الله إدراكاً محسوساً حقيقياً قبل الآخرة .

ولا شك في أن الإنسان سيشاهد ربه في الآخرة ، فقد جاء في القرآن : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾<sup>(١)</sup> .. وقد ورد في الحديث هذا المعنى

. ٢٣ ، ٢٤) سورة القيمة :

بالتواتر ، وجاء في إحدى روايات صحيح البخاري : « إنكم سترون ربكم غياباً » . وفي الصحيحين عن جرير قال : « نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال : إنكم ترون ربكما كما ترون هذا القمر » .

### شعائر الله

إنه من الحقائق الدينية أن الإنسان سيشاهد رب مشاهدة حقيقة في الآخرة إلا أن الإنسان – وهو يؤمن بمشاهدة الله في الآخرة وحدها – يتوقع إلى أن يجد ربه وأن يقترب منه اليوم قبل الغد .. وهذه هي الفطرة البشرية . والسؤال هو : كيف يمكن تلبية هذه الرغبة البشرية في هذه الدنيا ؟

وقد هيأ الله تعالى إجابة على هذا السؤال في سورة « شعائر الله » ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطْوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا إِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلَيْهِمْ ﴾<sup>(١)</sup> لقد جعل الله بعض الأشياء – لأهميتها التاريخية – « شعيرة » أي علامة عليه . وقد وفر الله تعالى حول هذه العلامات حالة معينة بحيث تعتبر مشاهدتها هي مشاهدة الحقائق العليا لكن يجد الإنسان بصورة غير مباشرة الحقيقة العليا التي لا يمكنه أن يجدتها بصورة مباشرة في هذا العالم . فإذا كان لا يستطيع أن يجد الله في هذه الدنيا إلا أنه يستطيع أن يشاهد شعائر الله ، وليس بإمكان الإنسان أن يجد الله في هذه الدنيا فيلمسه أو يشعر بقربه إلا أنه يستطيع أن يلمس شعائر الله فيحصل على التجربة الحسية للقرية الإلهية .

والشعيرة ( وجمعها شعائر ) تعنى عالمة أو تذكاراً ، فهى ليست أصلاً في ذاتها بل هي تذكرنا بالأصل بناء على علاقة ما ، ومن أمثلتها جيلاً الصفا والمروة

(١) سورة البقرة : ١٥٨ .

اللذان قال عنهما القرآن : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ .

والصفا والمروة جبلان بمحنة بالقرب من بيت الله . والمسافة التي تفصل بينهما نحو ٥٠٠ قدم . ولم يكن بهذه المنطقة سكان أو مياه حين أسكن إبراهيم عليه السلام زوجه هاجر وابنه الرضيع إسماعيل . وحين انتهى ما كان لدى السيدة هاجر من ماء سمعت سبع مرات بين هذين الجبلين بحثاً عن الماء ، واليوم يسعى الحاج سبع مرات بين هذين الجبلين تخليداً لذلك السعي .

وقد أحب الله تعالى هذه الواقعه فجعل الصفا والمروة شعيرتين له أي أنها تذكران أصيلان للعبودية لله .. فتذكر تاریخنا كاملاً برؤية الصفا والمروة حين هجر عبد من عباد الله وطنه الخصيب (العراق) وأسكن زوجه وابنه في منطقة جدباء ابتغاء مرضاة الله وحده .. وهذا مثال كامل للاعتماد على الله والثقة به .

وهكذا الكعبة والحجر الأسود ومقامات الحج الأخرى هي كلها من شعائر الله وهي علامات على حياة العبودية الخالصة التي عاشها الموحّد الكامل إبراهيم عليه السلام ، فتذكر حياة إبراهيم التوحيدية برؤية هذه الشعائر . وتتجسد للناظر إليها عظمة الله وجلاله ، ويشعر الإنسان وهو في بيته هذه الشعائر بأنه في بيته الله .

ومن آثار لمس الحجر الأسود استيقاظ العواطف الروحية في نفس الإنسان لتسكن هذه العاطفة الجياشة في الصدور ، وليفلغر الإنسان بسكونة هذه العواطف بلمس الحجر الأسود .. وهكذا يتوق الإنسان إلى أن يطوف حوله ، ليسكن هذه العاطفة بالطوف حول بيت الله المقدس . ويريد الإنسان أن يسعى وينجح في سبيل ربه وهو يحصل على سكونة هذه العواطف حين يسعى بين الصفا والمروة . وهكذا تسكن كل مراسم الحج بصورة أو أخرى العواطف الكامنة في النفس البشرية ، وهي وسليته لإقامة علاقة حسية مع ربها في هذا العالم .

وعاطفة العبودية لله وحده كامنة في فطرة الإنسان .. وما الشرك وعبادة الأصنام إلا إساءة لهذه العاطفة الفطرية . أما عقيدة التوحيد فتتوّجه هذه العاطفة

الفطرية وجهاً صحيحةً . وهكذا مراسم الحج .. فالحج من إحدى النواحي إصلاح خطأ بشرى وهو يمنع الإنسان من السير في الاتجاه الخاطئ ويوجهه الاتجاه الصحيح . فالحج شكل صحيح لتسكين عاطفة بشرية يبحث الإنسان عن سكينتها بأساليب باطلة .

ويريد الإنسان المحرف الضال أن « يشاهد » ربه في الدنيا وأن « يجده » بصورة حسية لكي يؤدى أمامه مراسم العبودية .. ولكن يسكن الإنسان هذه العاطفة تحت صوراً مرئية أو أصناماً وتماثيل وأخذ يبعدها ظناً منه أنها على صورة الله .. ولكن هذا السلوك « إلحاد » أي انحراف في تعبير القرآن . وشعائر الله إجابة أصح وأفضل للبحث البشري الضال لتسكين عاطفة فطرية في صورة الأصنام .

وأن تصنع صنائع الله ليس كأن تصنع تمثلاً لأحد البشر .. فالذى يصنع تمثلاً لشخص ما يكون قد رأى ذلك الشخص أو اطلع على صورة له على الأقل . ولكن لا يمكن لأى صانع تماثيل أو أصنام أن يدعى أنه قد شاهد الله . والذى يصنع صنائع الله فهو يحتجّ ويحجّم ذلك الوجود الذى لا حدود له ، وهو يضع وجوداً أعلى وأعظم في قالب أشياء أدنى . وكل عمل من هذا النوع مخالف للواقع ، وهو مرادف للخروج والتفرد على الخالق . والحج في ناحية من النواحي إصلاح لهذه العقلية البشرية . ورسالة الحج هي : لا تحاولوا أن تهبطوا بالله إلى مستوى التماثيل ، بل انظروا إليه على مستوى شعائره فليس بوسعكم أن تجدوه في هذه الدنيا على مستوى ذاته الإلهية ، ولكن يمكنكم أن تجدوه على مستوى آثار تلك الذات العليا ، وهي « الشعائر » التي قامت نتيجة أعمال عباد الله العظام ، وهي الاعتبارات والتأثيرات بتلك اللمحات التاريخية التي قام خلاطها اتصال بين الله ورسوله الصالح إبراهيم .

وشعائر الله هي آثار أولئك العظام الذين اختاروا العبودية لله بصورةها العليا

المعيارية . وأثارهم هي التي توصف بشعائر الله وتؤدي جميع مناسك الحج عند هذه الشعائر . والبعد عنها بعد عن الله . والعلاقة بها علاقة بالله .  
علاقة بالله

ومن أهم جوانب الحج أنه لقاء العبد بالحقيقة العليا . وتغشى العبد كيفيات رياضية من نوع خاص فيشعر بأنه قد خرج من « دنياه » إلى « دنيا الله » وأنه يلمس ربه ويطوف حوله ويسعى نحوه ويسير هنا وهناك من أجله ويقدم المدى لمرضاته ، ويرمى أعداه بالجمرات ، ويسأله كلما أراد أن يسأله ، وينجد منه كل ما رغب فيه .

وميدان عرفات منظر عجيب .. فترى عباد الله يأتون فوجاً بعد فوج من كل النواحي ، وعلى جسد كل واحد منهم لباس بسيط من نوع واحد ، وقد فقد الكل صفة المميزة ، وعلى لسان الكل شعار واحد : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك اللهم لبيك » .

وإنه حين ترى هذا المنظر تذكر الآية القرآنية : ﴿ وَنُفَخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسَلُونَ ﴾<sup>(١)</sup> . والحقيقة أن اجتماع عرفات خبر مقدم لاجتماع يوم الحشر ، بحيث ترى في هذه الدنيا صورة من صور الآخرة . وقد جاء في الحديث : « الحج عرفة » .. ويخبرنا هذا الحديث بأهم أهداف الحج وهو أن يتذكر العبد مثوله أمام الله في ميدان الحشر ، وأن يجري على نفسه رمزاً وذهنياً ما سيجري عليه غداً فعلاً وحقيقة .

والكعبة هي بيت الله الواحد الأحد ، وقد بناها نبيان جليلان هما إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وذكريات حيائهما العليا وواقع تضحيائهما المدهشة مرتبطة بهذا البيت ، وعبر حياة رسول آخر الزمان وأنشطته الربانية يعطر أجواءه .

---

(١) سورة يس : ٥١ .

وال المسلم يقرأ عن وقائع هذا التاريخ المثالى للعبودية لله والتضحية من أجله في الكتب ، هو يسمع منذ صباح - وحتى خروجه للحج - وقائع هذا التاريخ لدرجة أنها تصبح جزءا لا يتجزأ من ذاكرته . وتحيا كل هذه الذكريات فجأة حين يصل الإنسان بعد وعثاء السفر ويقف وجها لوجه أمام الكعبة .. فهو يجد نفسه واقفا أمام تاريخ كامل : تاريخ خشية الله ، وجهه ، والتضحية من أجله ، واختياره معبدا بدون شريك ، والاعتراف به قادرا مطلقا ، ومحو النفس من أجله ولرضاته ..

إنك تجد تاريخا ريانيا عظيما كهذا مجسدا في صورة الكعبة ، فترى هذا التاريخ مكتوبا على الأحجار والرمال .. ويهتز عقلك بهذه التجربة التي تذيب قلبك وتحولك إلى إنسان جديد تماما .

وكنت قد كتبت في رحلتي للحج سنة ١٩٨٢ :

« كنا نقيم بشارع إبراهيم الخليل القريب جدا من الحرم ، ولذلك كنت أقضى معظم وقتى داخل الحرم ما عدا أوقات الأكل وفترات النوم القصيرة . وكانت وتبينى كل يوم أن أتوضا بماء زمزم عند باب الهجرة ثم أشرب من مائه حتى أرتوى ثم أدخل الحرم .. وكنت أذهب في معظم الأوقات إلى الجزء العلوي من الحرم لأنه كان أكثر سكونا خلوة النسبى من الزحام . وكنت أصلى هناك وأتلوا القرآن وأنظر إلى الكعبة وأنذكر الله .. وكانت الساعات تلو الساعات تمر هكذا بدون أن أشعر بمرور الوقت . ومهما كان الوقت متاخرا إلا أتنى كنت أشعر - عند العودة من الحرم - أن نفسي لم ترتو بعد ، والكيفية التي تمر على قلب الإنسان وهو جالس أمام الكعبة لا يمكن بيانها بالكلمات » .

## الراحة في المعاناة

يتجمع أناس من كل أنحاء العالم خلال الحج ويتأذى الناس بعضهم من البعض الآخر مرة بعد أخرى خلال الحج وينجد المرء نفسه في مواقف تشق على نفسه . ولو توجه المرء في موقع كهذا إلى ربه لتغيرت حاله وستتحول أمر التجارب إلى أحلاها عنده .. والشيء الذي يعطيه الرزق النفسي في الأحوال العادية سيتحول إلى الرزق الرياني في مثل هذه الحالة .

وعلى سبيل المثال : أنت واقف تصلي في المسجد الحرام فإذا بطفوان من الناس يزحف ولا يجد متسعًا من المكان فيقف الناس أمامك يصلون وأنت لا تجد متسعًا حتى للركوع والسجود بصورة سليمة . ولو توجهت ببصرك إلى أولئك الناس فلن تجد في نفسك إلا مشاعر الغضب والبغضاء .. ولكن أمرك سيتحول إلى شيء آخر تماماً لو بدأت تحاسب نفسك في هذه الحالة ، فقلت : يارب تقبل مني هذه الصلاة على ما فيها من نقص لأن صلواتي الأخرى التي أظنها صحيحة في ظاهر الأمر هي ضعيفة وناقصة كصلواتي هذه .. ولو حول الإنسان ذهنه على هذا النحو فستختلف حاله تماماً . والحدث الذي يغذى عامة الناس بالغضب والبغضاء سيعطيهم غذاء القرب الإلهي في مثل هذه الحالة .

وهكذا تحدث مختلف التجارب المريرة خلال الحج .. مثل زحام البشر عند رمى الجمرات وغيرها من المناسبات ، وشدة الحر بمنى وعرفات ، وتدافع الناس لأجل الماء .. وتقع أحداث وتجارب كثيرة خلال رحلة الحج ، ولو ركزت بنظرك على ذلك الحادث وحده فستثور في نفسك نوبات الغضب والتوتر . أما لو بدأت تفكّر في أنه لو كانت مشكلات هذه الدنيا الصغيرة مزعجة إلى هذا الحد فكيف ستكون مشكلات يوم القيمة ؟ ... فستجد من فورك أن الشيء الذي كان يزعجك هو عينه مبعث الراحة في نفسك ورحمة من ربك تظللك .

## رحلة غير عادية

وقد كتبت في رحلتي المذكورة للحج في معرض انطباعاتي : « خرجت زائراً بعض البلدان سنة ١٩٨٢ ، ولم يكن الحج في برنامجه زيارتي ، ولم يكن حتى يحول في خاطري حيئذاً أن أتوجه إلى الحجاج لتأدية الحج تلك السنة . وحين ذهبت إلى بلد أفريقي وجدت هناك صديقاً كريماً ، وفجأة توفرت أسباب سفر الحج .. وحدث لي في هذه القضية ما يصوره أحد شعراء الأردية في بيت شعر له يمكن ترجمته كالتالي :

### اسأل موسى عن أحوال عطايا الرب

فهو يذهب باحثاً عن نار ، ويفوز بالنبوة ..

« وكان من باب الحرمان أنتي لم أكن قد خططتُ ، بعد ، لرحلة الحج . لقد خرجت من أرض الوطن في سفر آخر ولكن الله تعالى أوصلنى بصورة غربية - عبر رحلة في آسيا وأوروبا وإفريقيا - إلى أرض الحرم لأنعم بالحج . كنت حاجاً ولكن الله تعالى وحده الذى هيأ لي أسباب الحج .. فليس لأحد آخر يد في هذا السفر . ووصلت في نهاية الأمر إلى الحرم ووقع بصرى على الكعبة فكان منظراً لا يمكن للكلمات أن تعبّر عنه . فأنا تنظر إلى الكعبة وتتجدد نفسك في رحابه تجربةً يعجز قلمي عن التعبير عنها . ومررت بقلبي كيفية عجيبة بهذه النعمة التي لم أكن أتوقعها فخرج من لسانى : « يارب ، لم أنخطط في حياتي إلى اليوم لرحلة الحج ، أى أنتى كنت راضياً أن أموت بدون الحج . فما أعظم إحسانك أنْ أنقذتني من هذا الحرمان الذى لا يوصف بكلمات » ..

وهذه الانطباعات في ظاهر الأمر هي انطباعات حاج في لحظات خاصة ، ولكن ينبغي أن تكون هذه هي انطباعات كل حاج ، فعليه أن يدرك أن حججه إنما هو بتقدير من الله تعالى .. وعليه عندما يجد نفسه في رحاب الحرم أن يشعر

بأن الله وحده أوصله إلى هنا ، فقد خرج كمسافر عادى من وطنه ، والآن هو ضيف الله في بيته . ولم يقطع الحاج إلا المسافات المادية ، ولكنه حل في بيته تفيس بالبركات الإلهية الربانية . ولم يكن لديه إلا الحرمان لكن الله تعالى برحمته الخاصة حول حرمائه إلى إنعام .

### العطاء بقدر الكفاية

الكعبة علامة من علامات الله على وجه الأرض . لقد وفر الله هنا أسباباً تاريخية فلا يبقى زائر لها بدون أن يتأثر بها . وهو المكان الذي تعانق فيه الأرواح الضالة رُبها . وهنالك تفيس عيون العبودية من القلوب المتحجرة ، وتشاهد العيون العميماء تحليات ربه .. ولكن مبدأ « العطاء بقدر الكفاية » يجرب في هذا العالم ، ولا يظفر بالعطاء إلا من يحمل الكفاية لتلقيه . أما عديمو الكفاية فلا يدعوا أن يكون حجهم سياحة ، فهم يذهبون إلى هناك ليرجعوا كما كانوا ...

وكتب في رحلتي المذكورة :

« المناظر الربانية التي شاهدتها هناك لا سبيل إلى بيانها ، والمناظر البشرية التي رأيتها هناك ، لا سبيل إلى وصفها كذلك .. فقد رأيت الناس مشغولين في تجاذب أطراف الحديث فيما بينهم ، أو شاهدتهم منهمكين في شراء الحاجات الدنيوية ، بينما وجدت البعض الآخر منهم وهو يقوم بإظهار عاطفته الدينية الجياشة بدفع الآخرين ليخلو له المكان بينما مثل هذا السلوك لا يجوز أصلاً في الحج .

« والمناظر الربانية تملأ الجو هنا لكي ينهمك فيها الإنسان .. ولكن معظم البشر المجتمعين هنا منهكين في المناظر البشرية . والملائكة تنزل هنا لكي يناجهم البشر ولكن الناس يناجون بعضهم البعض . والآخرة معروضة هنا للبيع ولكن الناس يتلقونها ليشتروا الدنيا . وحيث كان ينبغي أن يبقى الإنسان في

الخلف خشية من الله<sup>(١)</sup> ، يتدافع الناس إلى الأمام ليظهروا مهاراتهم في سبق الآخرين .

### بعض الانطباعات

وكتبت كذلك في رحلتي هذه للحج :

« قمنا بأداء طواف الوداع مساء ٤ أكتوبر ١٩٨٢ ، وتوجهنا إلى المدينة ليلة . وكانت كيفية عجيبة تنتابني عندما خرجت من الحرم بعد هذا الطواف ، فكنت ألتقط إلى الخلف مرة بعد أخرى لأنقى نظرة أخرى على بيت الله الحرام . كانت قدماي تسيران إلى الأمام ولكن قلبي كان مشدودا إلى الخلف . وكنتأشعر أنني أخرج من وطني الحقيقي إلى وطن غريب .. وبهذه الكيفيات غادرت المسجد الحرام متوجها إلى المدينة ليلة ٤ أكتوبر .

« وكان دخولنا إلى الحرم المدنى مؤثرا غاية التأثير ، فقد مر أمامي التاريخ الكامل للإسلام ورسول الإسلام .. وخرج الدعاء الآتى من شفتي : يارب أصلى وأسلم على رسولك ، اكتبنى في أمة رسولك واجعلنى فيما يشفع لهم يوم القيمة من ستعنيلـ فىـهم الشفاعة وتجهم من عذاب الجحيم وتدخلهم الجنة ..

« وكنا نقيم في فندق بالقرب من المسجد النبوى ، وكان صوت الأذان والتكبير يصل إلى داخل غرفتنا . ووقفت إلى أداء الصلوات عدة أيام في المسجد النبوى ، ولكن هجوم المصليين لم يكن يسمح لنا أن نؤدى الصوات في سكون . وكنت أعيانى من هذا في الحرم المكي خلال الأيام الأولى إلى أن بدأت أصلى في طابقه العلوي حيث كنت أتمتع بسكون كبير .. ولا نعرف لماذا لم يبنوا دورا علويا

---

(١) بعض الناس يفهم حث الرسول ﷺ على الصلاة في الصف الأول على أنها معركة يجب أن يسبق فيها لكن الحقيقة أن المراد الذهاب للصلاة مبكرا بدون سباق وتنافس للرقاب وتكدير الآخرين .

للمسجد النبوي أيضاً لكي يلتجأ إليه الإنسان من الزحام<sup>(١)</sup>.

« والمسجد النبوي واسع وفخم بصورة غير عادية ولكن ، على سعته ، لا يكفي للأعداد المتزايدة من الزوار .. ولم يكن متظراً سعيداً لشخص مثل أن يرى الدكاكين والفنادق تحيط بالمسجد ماعداً جانباً واحداً أقاموا عليه بناءً أشبه بالخيام لأداء الصلاة . ليت المسجد النبوي كان محاطاً بالمليادين المفتوحة من كل جانب لتظهر عظمته . وهذا هو عين ما يجده المرء حول الحرم المكي .

« وتنشر الحكومة السعودية إحصائيات الحجاج كل سنة . وحسب ما نشرته في إحصائياتها لسنة ١٤٠٢ هـ فقد بلغ عدد حجاج الخارج ٨٥٣,٥٥٥ حاجاً . ومن البلاد التي جاء منها عدد كبير من الحجاج :

- ١ - مصر ٩٨,٤٠٨
- ٢ - إيران ٨٩,٥٠٣
- ٣ - نيجيريا ٨١,١٢٨
- ٤ - باكستان ٧٢,٨٤٤
- ٥ - أندونيسيا ٥٧,٤٧٨
- ٦ - تركيا ٥٣,٧٨٨
- ٧ - الجزائر ٤٠,٤٠٠
- ٨ - سوريا ٢٧,٨٩٠
- ٩ - الهند ٢٦,٢٢٩

« وقد هيأت الحكومة السعودية الكثير من أفضل التدابير لتسهيل الملاسك ،

---

(١) كتب هذا الكلام قبل قرار الحكومة السعودية حفظها الله بتوسيعة المسجد النبوي توسيعة هائلة يجري العمل فيها على أشده الآن .

الأمر الذى سهل الحج كثيرا في العصر الحاضر . ولكن هناك شيء يبدو أنه لا حل له ، وهو هجوم الحجاج ، وخصوصاً تدافع الناس على بعضهم البعض عند رمي الجمرات ، الذي يعتبر أمراً مؤسفاً للغاية . وكثير من الناس يهجمون في وقت واحد لرمي الشيطان بالجمرات ولكن يبدو أنهم توافقون إلى تحطيم الإنسان الحقيقي أكثر منه إلى رجم الشيطان الرمزي . ولم أر في حياتي مثلاً أسوأ من هذا التجاهل لأمر إلهي في سبيل تأدية أمر إلهي آخر . وقد رأيت عدداً من الناس بالجحش حول أيديهم وأقدامهم لإصابتهم ، ثم شاهدت حاجاً يتسلط أمام تدافع الحجاج ويموت تحت أقدامهم . وأخبرني الناس أن وقائع كهذه تحدث كل سنة . فما أعجب هذا الحج الذي يتدفع فيه الناس لرمي عدو رمزي فيقتلون إنساناً حقيقياً » .

### تجديد الإيمان

ويمكن اعتبار الحج تجديداً للإيمان .. فكأن الحاج يباعي ربه مباشرة عندما يصل إلى مكة ويطوف حول الكعبة مردداً « لبيك اللهم لبيك .. » .

وسقوط الذنوب السابقة على الحج يقع طبقاً لنفس القانون الذي يُسقط الذنوب التي يرتكبها المرء قبل إسلامه . وتبدأ هذه المعاملة الإلهية مع العباد عند إيمانهم الأول وتكتمل بعد إيمان الثاني المتمثل في الحج . فإذا كان إيمان الأول إيماناً ب بصورة غير مباشرة فالإيمان الثاني إيمان مباشر . ويُخفى الإيمان الأول لتطهير العبد من تبعات ذنبه السابقة ولكنه يكتمل بالإيمان الثاني لو كان العبد مستطاعاً رحلة الحج . ولعله لهذا ورد في الحديث الشريف : « من استطاع أن يحج ولم يحج فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصراانياً »<sup>(١)</sup> .

(١) رواه الترمذى : في أبواب الحج ، باب ما جاء في التغليظ في ترك الحج .

الفصل الخامس  
الحج و الوحدة الإسلامية

## الفصل الخامس الحج والوحدة الإسلامية

الوحدة الإسلامية جانب من جوانب الحج . فالمسلمون من كل أنحاء العالم يجتمعون في مكان واحد ويؤدون معاً مناسك الحج . فالحج هو الاجتماع الديني العالمي لل المسلمين . ولتدبر معا الآيات القرآنية التالية :

- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾<sup>(١)</sup> .
- ﴿إِنَّ أُولَئِكَ بَيْتٌ وُضَعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي يَبْكُهُ مَبَارِكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾<sup>(٢)</sup> .
- ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾<sup>(٣)</sup> .
- ﴿فَاجْعَلْ أَنْقَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهُوِي إِلَيْهِمْ﴾<sup>(٤)</sup> .
- ﴿وَادْنُ في النَّاسِ بِالْحَجَّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فُجُّ عَمِيقٍ﴾<sup>(٥)</sup> .

### المركز العالمي للتوحيد

نعرف من خلال هذه الآيات أن الهدف الإلهي وراء بناء إبراهيم للكعبة كان إعداد مركز لأهل التوحيد يومه الناس من قريب وبعيد . وهيا الله أسباباً تاريخية حول الكعبة لتجذب إليها قلوب الناس فيقصدوها جماعات وأفراداً .. فبيت الله

(١) سورة البقرة : ١٢٥ .

(٢) سورة آل عمران : ٩٦ .

(٣) سورة المائدة : ٩٧ .

(٤) سورة إبراهيم : ٣٧ .

(٥) سورة الحج : ٢٧ .

هو المركز الإسلامي العالمي إلى يوم القيمة ، وهو مقر الاجتماع العالمي السنوي لكل مسلمي العالم ، ولذا تقول الروايات إن الله تعالى أمر إبراهيم بأن ينادي في الناس بأن يأتوا هذا البيت زائرين فقال يا رب كيف أبلغ الناس وصوتي لا يصل إليهم فقال : نادِ علينا البلاغ . فقام على الحجر وقال : يا أهلا الناس ، إن ريكم قد اتخذ بيتك فحججا إليه . فيقال إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض وبمع من في الأرحام والأصلاب وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيمة : لبيك اللهم لبيك <sup>(١)</sup> . وهذا لا يعني أن كل الناس على كل وجه الأرض من كانوا موجودين في ذلك الوقت وئن ولدوا في المستقبل سمعوا صوت إبراهيم في نفس ذلك الوقت ، بل كان صوت إبراهيم نداءً رمزاً . لقد سمع الناس كلهم هذا الصوت بدون شك ولكنكَ كان سمعاً بصورة رمزية وليس بصورة فعلية .. فقد كان النداء الإبراهيمي بدءاً لواقعه مستمرة لا تتقطع . فأطلق إبراهيم ندائِه في عصره ، وأندذه الآخرون من بعده فأسمعواه لمن في عصرهم ، وهكذا استمر هذا العمل جيلاً بعد جيل ، وعندما جاء عصر الصحافة والإذاعة انتشر هذا الصوت على مدى أكبر ، فجاوز الجبال والبحار حتى تلاشى الخوف من أن يوجد على وجه البسيطة من لم يصله هذا النداء الإبراهيمي .

### إعلان عام

والحج هو المقام الطبيعي لإعلان القضايا الاجتماعية ، ولذلك أعلنت أهم أمور الإسلام في مناسبات الحج ، ومن أمثلته إعلان البراءة من الكفار والمرشكين والذي تم بعد نزول سورة التوبة .

وكانت مكة قد فتحت في رمضان سنة ٨ هـ . ووقعت ثلاث حجات بعد ذلك

(١) تفسير ابن كثير : تفسير الآية ٢٧ من سورة العنكبوت .

في حياة الرسول ﷺ . ولم يقم رسول الله بالحج خلال الستين الأولين ، بل أدى في السنة العاشرة حجته المعروفة عموماً بحجوة الوداع ثم توفي إلى رحمة الله . وكان رسول الله ﷺ قد عين أبي بكر الصديق أميراً على الحجاج سنة 9 هـ . فتوجه أبو بكر إلى مكة مع مجموعة من الصحابة ، وبعد خروجه من المدينة نزل الجزء الأول من سورة التوبة الذي أمر الله فيه بأن يعلن الرسول براءة الله ورسوله من المشركين ، وأعطي له مهلة أربعة أشهر لوضع هذا الإعلان موضع التنفيذ . وقد ورد في الروايات بهذه المناسبة :

لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ ، وكان قد بعث أبا بكر لإقليم الحج للناس فقيل يا رسول الله : لو بعثت إلى أبي بكر ؟ فقال : « لا يؤذى عنى إلا رجل من أهل بيتي » ، ثم دعا علينا فقال : « اذهب بهذه القصة من سورة براءة وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمني أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان » .. ويقول على كرم الله وجهه إنه طاف بمكة معلنا إعلان البراءة بين الجموع إلى أن « صحل » صوته<sup>(١)</sup> .

لقد نزل حكم البراءة من مشركي الجزيرة العربية وكفارها في المدينة إلا أنه أعلن بمكة خلال موسم الحج . وهذا دليل واضح على أن موسم الحج بمكة هو المكان الصحيح لإعلان كل القرارات الإسلامية الهامة . فالحج هو المركز الاجتماعي لكل مسلمي العالم ، وهم يجتمعون هنا وعليهم أن يعلموا هنا قراراتهم الكبرى وعليهم أن يضعوا هنا الخطط العالمية للأعمال التي يجب عليهم تنفيذا لأوامر الله ورسوله .

والمثال الواضح الثاني لهذا هو خطبة حجوة الوداع ، التي هي أهم خطبة في

(١) تفسير ابن كثير ، تفسير الآية ٣ من سورة التوبة .

حياة الرسول ﷺ .. فمن خلالها أراد أن يعرف الناس بمتضيّبات الدين الأساسية بصورة نهائية قبيل وفاته ، ولم يعلّمها الرسول ﷺ في أي مكان آخر بل أخرّها إلى أن حان الحج سنة ١٠ هـ . ولذلك قال في مستهل الخطبة : « أيها الناس ، اسمعوا قولي ، فإني لا أدرى لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً »<sup>(١)</sup> . ثم أخبر رسول الله الناس بكلّ أمور الدين الأساسية ثم سألهم في نهاية الخطبة : « ألا هل بلغت ، ألا هل بلغت . فشهد الناس بنعم ، قد بلغت .

وكانَ الجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ قد دانتَ لَهُ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ سَنَةَ ٨ هـ . وَكَانَ بِإِمْكَانِ رَسُولِ اللَّهِ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى أَيْ مَكَانٍ آخَرَ غَيْرَ مَكَّةَ لِيَذْبَعَ هَذَا الإِعْلَانُ . وَكَانَ الْمَدِينَةُ مَرْكَزُ الْإِسْلَامِ السِّيَاسِيِّ حِينَئِذٍ . وَكَانَ بِإِمْكَانِ رَسُولِ اللَّهِ أَنْ يَسْتَقْدِمَ النَّاسَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَقُومُ بِهَذَا الإِعْلَانِ أَمَامَهُمْ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْلُكْ هَذِهِ الْطَّرِيقَ بَلْ انتَظَرَ الْحَجَّ ، فَأَعْلَمَهَا بَعْدَ وَصْوَلِهِ إِلَى مَكَّةَ .. وَهَكُذا تَبَيَّنَ سَنَةُ رَسُولِ اللَّهِ أَنَّ الْحَجَّ هُوَ الْمَكَانُ الْأَنْسِبُ لِإِعْلَانِ كُلِّ الْأَمْوَارِ وَالْقَرَارَاتِ الْحَامِةِ فِي الْإِسْلَامِ .

### أسلوب فطري

ويعود السبب في هذا الاختيار إلى أن الإسلام يفضل الأسلوب البسيط والطبيعي لكل الأمور . وعلى سبيل المثال : فإن من أعمال الحج السعي بين الصفا والمروءة . وهنا ثار سؤال « الترتيب » ، أي هل يبدأ السعي من الصفا أو من المروءة ؟ . وحين قام رسول الله بالسعى قال : « أبداً بما بدأ الله به » . وكان يشير بذلك إلى الآية القرآنية التالية ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾<sup>(٢)</sup> ، وهي الآية التي تأمر الحاج بالسعى بين الصفا والمروءة وهي تقدم الصفا على المروءة . فجعل رسول الله ترتيب العمل على غرار الترتيب القرآني البياني لكي لا يضطر

(١) السيرة النبوية لأن هشام : ٦٠٣/٢ .

(٢) سورة البقرة : ١٥٨ .

الإنسان إلى حفظ ترتيبين : أحدهما في القرآن وأخرهما في مناسك الحج . وقد جعل الحج مكان الإعلان مراعاةً لهذه الحكمة الطبيعية . فيجتمع المسلمون من كل أنحاء العالم لأداء شعائر الحج كل سنة وسيظلون يجتمعون ما بقيت للدنيا قائمة ، ولذلك جُعل الحج مكان الإعلان الاجتماعي لكي يكفي اجتماع واحد لتحقيق هدفين في آن واحد .

ومن فوائد الإعلان الاجتماعي عند الحج أن مثل هذا الإعلان يكتسب نوعاً من القدسية .. فإن الحج هو أقدس مكان في نظر المسلمين والإعلان الذي يتم عند الحج يكتسب نوعاً من القدسية والاحترام في أنظار الناس .

### اجتماعية الحج

الحج أهم عبادة إسلامية تؤدي كل سنة ، وهو يقع في الشهر الأخير من التقويم القمري والمعروف بذى الحجة . وتؤدي شعائر الحج في بيت الله بمكة وبعض الأماكن المحيطة بها . وتعتبر هذه العبادة جامعة لكل العبادات الأخرى لأنها تحتوى على عدد من الجوانب العبادية . ومنها الجانب الاجتماعي ، فهذا الجانب بارز بروزاً كبيراً في عبادة الحج . وقد قالت دائرة المعارف البريطانية : « يؤدى الحج كل سنة مليونان من الأفراد ، وتؤدي هذه العبادة دوراً قوياً توحيدية في الإسلام بأنها تحيل أتباعاً له من مختلف الجنسيات ليجتمعوا معاً في احتفال ديني »<sup>(١)</sup> .

وقد ورد في القرآن في معرض الأمر بالحج : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنَاهَا ﴾<sup>(٢)</sup> .. والمثابة مرادفة لكلمة « المركز » بمعناها الحديث ، أي المكان الذي يجتمع فيه الناس ويكون مرجعاً يرجعون إليه وجماعاً يجتمعون ويسوّونهم من

(١) دائرة المعارف البريطانية : ٤/٨٤٤ - ١٩٨٥ . طبعة .

(٢) سورة البقرة : ١٢٥ .

. التشتت .

ويأتي الناس لعبادة الحج من كل أنحاء العالم ومن كل الأجناس ، ويبلغ عددهم كل سنة نحو مليونين ونصف مليون ، حتى إنك لترى وجوه البشر في كل مكان بمكة وضواحيها أيام الحج ، وهم يتحدثون بلغات مختلفة ، وأشكالهم ووجوههم تختلف كذلك ، ولكن يتحد تفكيرهم بعد المحبة هنا ، فالكل يسير نحو هدف مشترك ، حتى إنه ليبدو أن هناك مغناطيسا ربانيا يجذب كل هؤلاء إلى نقطة واحدة مشتركة .

وحين يقترب هؤلاء الناس من مقام الحج يتخلّون عن ملابسهم الخالية ويرتدون لباس « الإحرام » المشترك الذي يتكون من رداءين أبيضين ، يُتّرّ الحاج أحدهما ويضع الآخر فوق كتفه وظهره . وهكذا ترى مئات الآلاف من البشر في وضع واحد ولباس واحد .

ويجتمع هؤلاء الناس في جبل عرفات الفسيح في آخر الأمر بعد أداء مختلف شعائر الحج .. وما أغريه من منظر .. إنه ليبدو أن كل الفروق بين البشر امتح فجأة ، وتلاشى البشر في وحدة الله ناسين كل خلافاتهم . لقد اتحد الناس هنا كوحدة إلههم .

ولو نظرت إلى الحجاج من أعلى جبل وهم مجتمعون في ميدان عرفات الكبير بملابس الإحرام فسترى أن الإنسان قد اتحد على اختلاف لغاته وألوانه ومراتبه وجنسياته ، وترى الشعوب والقوميات تنصهر في قومية واحدة جامعة .. والحقيقة هي أن الحج أكبر مظاهرة اجتماعية من نوعها ولا تجد لها مثلا في أي مكان آخر من العالم .

والكعبة قبلة المسلمين .. يتجه إليها المسلمون كل يوم خمس مرات في صلواتهم . فالقبلة العبادية لكل المسلمين واحدة . وتكون هذه القبلة حقيقة

تصورية في الأحوال العادبة . ولكنها تصبح حقيقة مركبة عندما تصل إلى مكة في أيام الحج .. وعندما يأتيا المسلمين من كل أنحاء العالم ويصلون متوجهين إليها من كل ناحية فترى بصورة محسوسة أن قبة مسلمي العالم جمِيعاً قبلة واحدة مشتركة بالفعل .

والكعبة بناء عاليٌ مكعب ، ويُمشي الناس حوله في دائرة . ويطلق على هذا « الطواف » وهم يصطفون ويصلون حولها في دائرة وتكون الكعبة مركز كل اتجاهاتهم خلال الحج . فالحج عبادة تعطينا دروسَ الاجتماعية المركزية بمختلف شعائره ومناسكها .

### تاریخ الحج

يرتبط تاريخ الحج بحياة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . وليس المسلمين وحدهم هم الذين يؤمنون بهما بل يعتبرها أتباع الأديان الكبرى الأخرى أيضاً من أجل الرسل . وهكذا يتمتع عمل الحج بقدسية وعظمة تاريخية لا يتمتع بها عمل ديني آخر في العالم .

وكان إبراهيم عليه السلام قد ولد في العراق القديم ، وإسماعيل ابنه . وكان العراق بلداً متحضرًا في ذلك العصر ، وكان آذر - والد إبراهيم - وجده إسماعيل - من كبار المسؤولين في الحكومة العراقية آنذاك ، وكانت فرص الرق مفتوحة أمام إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في العراق إلا أنهما لم يختتملا نظام العراق القائم على الشراك ، فهجرَا ذلك البلد الخصيب الذي كان مركز الشرك لكي يعبدَا الله الواحد الأحد وتوجهَا إلى الصحراء العربية الجدباء التي لم يكن شيء فيها يحول بين الخالق ومخلوقه .. وهنالك قاماً ببناء بيت الله .

ويمكن أن نعبر عن عمل إبراهيم وإسماعيل بكلمة أخرى فنقول : إنهما جعلا الله الواحد مرجعهم الأوحد ، بدلاً من التوجّه إلى آلهة المشركين ، وقاماً ببناء بيت

الله « الكعبة » ليكون مركزا عالميا لعبادة الله الواحد الأحد . وهذا المركز هو مكان أداء مناسك الحج أيضا .

ولننظر الآن في بعض جوانب هذه المناسك . فالكلمة التي يرددوها الحاج أكثر من غيرها خلال الحج هي « الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله والله أكبر ، والله أكبر والله الحمد » .

إن جعل الحاج يردد هذه الكلمات مرة بعد أخرى يهدف إلى توليد نفسية معينة فيه ليعي أن العظمة لله وحده . ويجب على كل جوانب العظمة الأخرى أن تتحنى أمام هذه العظمة الكبرى وأن تبعها . وهذا الشعور هو أكبر الأسرار الاجتماعية ، فلا تقوم الحياة الاجتماعية والوحدة حيث يظن الكل أنه عظيم ، ولا توجد غير الوحدة والاجتماعية حيث يتنازل الناس عن عظمتهم الفردية لأجل واحد منهم .. فالفرقـة غلـم على التصارـع عـلـى العـظـمة ، والـوـحدـة هـي وـحدـة العـظـمة .

والطواف من أهم أركان الحج وكل الذين يجتمعون بمكة في موسم الحج يبدعون بطواف الكعبة ، وهو إقرار عملي بأن الإنسان سيجعل نقطـة واحدة محـورـ كل جهـودـه ، وأنـه سيـتـحرـكـ فـي دائـرةـ وـاحـدة .. وـهـذـهـ هـيـ المـركـبةـ التـيـ نـشـاهـدـهـاـ عـلـىـ المـسـطـوـيـ المـادـيـ فـيـ النـظـامـ الشـمـسـيـ فـكـلـ سـيـارـاتـ النـظـامـ الشـمـسـيـ « تـطـوفـ » حـولـ مـرـكـزـ وـاحـدـ هوـ الشـمـس .. وـهـكـذـاـ يـعـلـمـنـاـ الحـجـ أـنـ يـجـعـلـ عـبـادـةـ اللهـ الـحـقـةـ الشـامـلـةـ مـرـكـزـ كـلـ حـيـاتـنـاـ فـنـدـورـ حـوـلـهـاـ وـفـيـ دـائـرـهـاـ ، وـلـأـخـرـ عـنـهـاـ وـلـأـعـلـيـهـاـ .

ثم يسعى الحاج بين الصفا والمروءة ، فينطلق من جانب الصفا ثم يعود إليه . وهو يفعل هذا سبع مرات . وهذا يعلمـناـ بـصـورـةـ عـمـلـيةـ أـنـ يـكـونـ مـسـعـانـاـ فـيـ حـيـاتـنـاـ الـعـمـلـيـةـ دـاخـلـ حدـودـ معـيـنةـ ، فـلـوـ لمـ تـكـنـ لـنـاـ حدـودـ أـوـ ظـلـلـنـاـ تـجـاـزـهـاـ فـسـيـنـفـلـتـ بـعـضـنـاـ إـلـىـ جـانـبـ بـيـنـاـ سـيـضـبـعـ بـعـضـ الآـخـرـ مـنـاـ فـيـ جـانـبـ آـخـرـ . وـلـكـنـ عـنـدـمـاـ نـضـعـ حدـودـاـ مـعـيـنةـ لـمـسـعـانـاـ فـنـجـنـ سـنـعـودـ دـوـمـاـ إـلـىـ حـيـثـ إـخـوـانـنـاـ

الآخرون .

وهكذا تدور مناسك الحج الأخرى .. فيهي تعليمنا بأسلوب أو باخر أن نتحد وأن نعمل معا . فهذه المناسك مظاهرة عملية للعمل المتاغم .

### مركز الوحدة

والحج في حقيقته مسيرة نحو الله . فعامة البشر سيمثلون أمام ربهم بعد الموت ، ولكن المؤمن يمثل بين يدي ربه قبل أن يأتيه الموت .. فحضور الآخرين أمام الله حضور المجبور الذي لا حيلة له . أما حضور المؤمن فباختياره . وهذا هو المظر الذي يقدمه اجتماع الحجاج من كل أنحاء العالم في ميدان عرفات ، ولعله لهذا قال رسول الله ﷺ : « الحج عرفة » .

إلا أن الحج عبادة جامعة أودع الله فيها فوائد أخرى كثيرة بصورة مباشرة أو غير مباشرة . ومن هذه الفوائد أنه وسيلة للوحدة الإسلامية العالمية . فالكعبة هي النقطة المركزية التي تتنظم حولها دائرة المؤمنين العبادية حول العالم .

والجانب الحقيقي لحضور عرفات يتعلق بالآخرة ، إلا أن السر العميق لوحدة أهل الإسلام كامن فيه في الوقت نفسه ، وذلك لأن الوحدة هي التجمع حول مركز واحد . وحين يتجمع المسلمون حول ربهم خلال الحج فهم يكتشفون كذلك سر تحويل كثيরهم العددية إلى وحدة . إنهم يكتشفون أسرار دنياهم بينما هم يتلقون أسراراً أخراهم .

.....

توجد أمامى على الحاجط صورة الكعبة ، بيت الله ، ذلك البناء المعروف الذى يتوسط المسجد الحرام الفسيح . ونرى في الصورة مئات الآلاف من البشر يركعون أمام ربهم في دائرة .. هذه هي الصلاة الاجتماعية السنوية التى تؤدى خلال الحج ويشارك فيها نحو مليونين ونصف مليون مسلم من كل أنحاء العالم . إنه حدث

مشهود ويمكن التقاط الصورة له .

ولكن الذين يتحدون من الكعبة قبلة ليسوا هم كل من نراهم في المسجد الحرام . فهناك عدد هائل من المسلمين خارج الحرم وفي كل مكان على وجه الأرض . فالمسلمون في كل أنحاء العالم يتوجهون خمس مرات كل يوم نحو الكعبة لأداء صلواتهم . وتظل هذه الدائرة - التي نشاهدها داخل المسجد الحرام - تسع حتى تشمل الكرة الأرضية كلها .

ولو تخيلت فسترى أن الذى يحدث بصورة محدودة في صحن المسجد الحرام يحدث كل يوم على مستوى أعظم وأكبر في كل أنحاء العالم . فالمسلمون في كل مكان ، ومن كل ناحية ، يتجهون صوب الكعبة خمس مرات كل يوم لأداء الصلوات . وهم يقفون في كل أنحاء العالم حول الكعبة من جوانبها الأربع .. أى أن المسلمين يقيمون حولها دائرة كاملة على وجه الأرض خمس مرات كل يوم ، فت تكون الكعبة في الوسط بينما المسلمون يؤدون صلواتهم حولها في دائرة من كل ناحية على وجه البسيطة .. وهذه ناحية اجتماعية عظيمة لا مثيل لها في أية جماعة دينية أو غير دينية في العالم .

وهذا هو النظام العظيم الذى قام ب بواسطة آلاف السنين من التاريخ . ولو كان في المسلمين شعور حقيقى فأخذوا من الحج الدرس الذى يهدف إليه هذا النظام العظيم لوقعت النهضة الحقة في حياة المسلمين ولانضم كل فرد منهم إلى هذه الهيئة العالمية الاجتماعية المقدسة .. والحقيقة هي أن الكعبة رمز توحيد الله على وجه الأرض وهى في الوقت نفسه رمز وحدة المسلمين واجتاعيتهم .

ومن الجوانب الظاهرة لهذا النظام العظيم الذي يرى على الوحدة أنه يتطلب من الكل أن يتخلوا عن ملابسهم الخاصة وأن يرتدوا لباسا واحدا بسيطا . فيزول هنا الفرق بين الملك والرعيه ، وتختفي هنا امتيازات الملابس الغربية والشرقية ، ويبدو

الناس في لباس الإحرام المشترك وكان لكل منهم وضعًا واحدًا .. فالكل عباد الله ولا وضع لهم سوى وضع العبودية لله .

وتنهى مناسك الحج المقررة في مكة إلا أن معظم الحجاج يتوجهون إلى المدينة بعد الفراغ من الحج أو حتى قبله لو كان لديهم متسع من الوقت .. وكانت المدينة تسمى ( يثرب ) في قديم الزمان ، وجعلها النبي ﷺ مركز دعوته في آخر حياته ، فأصبحت تدعى بـ « مدينة النبي » « منذئذ و ( المدينة ) اختصار لتلك التسمية . ويوجد في المدينة المسجد الذي بناه رسول الله ﷺ . وتنشر حوله آثار حياته القرآنية . وذهاب الحجاج إلى المدينة - مع أنه ليس شرطًا في الحج - درس لهم للمزيد من الوحدة والاجتماعية . فهم يدركون في المسجد النبوى أن زعيهم واحد وهم يعودون بإحساس بأنه مهما كانت الفروق الجغرافية والقومية بينهم ، إلا أنه يجب عليهم أن يسلكوا طريق النبي الواحد . وعليهم أن يجعلوا هذا الوجود المقدس وحده زعيما وقائدا لحياتهم . ومهما بلغ عددهم ومهما تمايزوا عن بعضهم البعض إلا أن إلههم واحد ورسولهم واحد كذلك .

الفصل السادس  
دروس التقوى والعفة

## الفصل السادس

### دروس التقوى والعلفة

من الآيات التي وردت حول الحج الآية التالية :

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ فَمَنْ فَرِضَ فِيهِنَّ الْحَجُّ فَلَا رَفْثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جَدَالَ فِي الْحَجُّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَرَوُدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الرَّازِدِ التَّقْوَى وَأَنْقُونَ يَا أُولَى الْأَلْبَاب﴾<sup>(١)</sup>.

وكان الناس يحجون في الجاهلية قبل الإسلام ، ولكن حجتهم كان مهرجاناً قومياً بدلاً من أن يكون عبادة لله الواحد . فكان يجري خلال الحج في تلك الأيام كل ما يحدث في المهرجانات القومية عموماً . وقد ألغى الإسلام كل هذه الأشياء .

وهكذا أمر الإسلام باجتناب الرفت والفسق والجدال اجتناباً كلياً خلال أيام الحج . ويعنى الرفت الانشغال بالأمور الشهوانية ، أما الفسوق فيعني عصيان الله تعالى ، بينما يعني الجدال المخاصمة بين الناس .. وهذه الأشياء ممنوعة في الأحوال العادية إلا أنها محظوظة بصورة خاصة خلال الحج . ومن أهم أسبابه أن فرص هذه المحرمات تتوفّر أكثر خلال السفر واجتماع الناس . ولو لم يكن شعور المرء واعياً بصورة كاملة إلى مساوىٍ هذه الخصال فقد يتزلق إليها بوعي أو بدون وعي . والمؤمن هو الذي يعيش لأجل المهدى بدلاً من أن يعيش لأجل الشهوة . وهو الذي يتخذ التدابير لكي يتقي عصيان الله في شئونه ، وهو الذي يتبعد عن

. (١) سورة البقرة : ١٩٧ .

الجدال والخصام في الحياة الاجتماعية .. وتحلى المؤمن بهذه الخصال في كل الأوقات إلا أن هذه الأشياء علامه تعدد بصورة واضحة ما إذا كان المرء قد أصبح « حاجا » بالفعل أم لا . ولو كان المرء متمنعا بكيفيات التقوى التي ينبغي أن نظرأ عليه خلال رحلة الحج ، فمن المستحبيل أنه سيقع في هذه المعاصي في حياته التي تلي الحج .. فهذه الأشياء تنفي التقوى وهي توجد حيث ينعدم التقوى . وحيثما وُجِدَت التقوى فهذه الأشياء ستندم فيها لا محالة .

### مزيد من الاهتمام

ما هو متنوع خلال الحج متنوع في الأيام الأخرى أيضا . ومنع هذه الأشياء خلال الحج يهدف إلى تربية خاصة . فيجري تنفيذ هذه المتنوعات الشرعية بصورة مؤكدة خلال الحج لكي يزداد الحاج شعورا بها فيكتسب استعداداً نفسيا خاصا لاجتنابها في أيامه العادمة .

ويكون المرء منغمسا في شفونه الخاصة عندما يكون في بيته وعمله وتجارته وينسى الحقائق الأخرى ، ولذلك يوتي بالمرء إلى المسجد لأداء الصلوات لكي يتبعد بعض الوقت عن بيته الخاصة ويخلى ذهنه من الأشياء الفانية ويتوجه توجهها كاملا إلى الله تعالى . ورحلة الحج أيضا عمل من هذا النوع . فيتوجه المرء في أيام الحج من بيته المحدودة لمدة طويلة لزيارة مختلف المقامات في الحجاز . فالحج انقطاع المرء كليا عن بيته الدينية لكي يتوجه إلى ربه توجهها كاملا . وتعلق بالجزيرة العربية آثار وتقالييد دينية عظيمة . وهذا كانت أنساب مكان لأداء مناسك الحج . فهناك الكعبة التي تحيط بها القدسية منذ آلاف السنين ، ووقعت على أرضها وقائع تضحية الأنبياء ، وهنا آثار النعم الإلهية على العباد الصالحين ، وهنا الأرض التي تحمل آثار حياة آخر الأنبياء وأصحابه الكرام . وقد اكتسبت مقامات الحج قدسية واحتراما عظيمين بمثل هذه العلاقات

التاريخية . فيتجلى أمام المرء تاريخ ديني كامل عندما يصل إلى هذه البيئة ويكون من الطبيعي أن يشحذ هذا كله حسه الديني . فيبدأ في تنفيذ الفرائض الإلهية بجدية وانهماك .. وقد اختار الله تعالى هذه المنطقة بسبب هذه العلاقات التاريخية الخاصة لكي يجري المرء هنا تمرينا رمزا ثم يعود إلى بيته السابقة لكي يعيش حياة أكثر عبودية من ذى قبل .

وهناك ثلاثة أشياء ممنوعة على الحاج بصورة خاصة خلال أدائه مناسك الحج وهي كما يلى :

- ١ - لا يؤذى الحاج أحدا بلسانه .
- ٢ - لا يقتل حيوانا أو يجرمه .
- ٣ - أن يتتجنب أشياء اللذة والزينة كقطع الأظافر وتزيين الشعر ، ولبس الملابس المخيبة واستخدام العطور ، وإقامة العلاقات الزوجية .

### الحدر في الكلام

أكثر الأشياء التي يتأنى منها الناس في حياتهم الاجتماعية هو اللسان فلا يجرح عواطف الناس شيء قدر ما تجرحها السنة بعضهم .. ويحدث مرار خلال أيام الحج ، بسبب تجمع عدد كبير من الناس في مكان واحد ، أن تزلّ السنة البعض فتجرح مشاعر الآخرين . ولذلك جعل الله تعالى موسم الحج مناسبة خاصة ل التربية المسلمين على مراعاة الحذر في الكلام . ومن الأخلاق الإسلامية العامة لا يؤذى المرء الآخرين بلسانه ولكن الله تعالى جعل هذا الخلق جزءا من العبادة الإسلامية في أيام الحج لكي يهتم الناس به اهتماما كبيرا فيجتنبوا هذا الشر الاجتماعي . وقد قال رسول الله ﷺ : « من قضى نسكه وسلم المسلمين من لسانه وبده غفر له ما تقدم من ذنبه »<sup>(١)</sup> .

---

(١) تفسير ابن كثير ، تفسير الآية ١٩٧ سورة البقرة .

وجاء في القرآن : ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ فِيهِنَّ الْحِجُّ فَلَا رَبَتْ  
وَلَا فُسُوقٌ وَلَا جِدَالٌ فِي الْحِجُّ﴾<sup>(١)</sup>. وهذه الأشهر المعلومات هي شوال  
وزو القعدة وذو الحجة . والمطلوب من الحاج أن يخلو حجه من الفحشاء ومعصية  
الله والخصام والجدال مع الآخرين . وقد حرم الله هذه الأشياء التي يعبرها  
إنسان عموماً بلسانه ، وهي تؤذى الآخرين عندما يستخدم كلمات سيئة في  
حقهم أو يخاطبهم بعبارات جارحة أو يلجأ إلى الخصام والجدال . وقد حرم  
هذه الأشياء كلها خلال الحج لتزداد حساسية الإنسان تجاهها ليعود من رحلة  
الحج المقدسة وقد شفى لسانه من هذه الأشياء المؤذية للآخرين .

### اجتناب العنف

وقد حرم على الحاج بعد الإحرام أن يصطاد الطيور وحيوانات البر ، بل وحرم  
عليه قبول شيء مما يصطاده غيره . وكذلك حرم عليه تف شعر الطيور أو  
مساعدة الآخرين في الصيد أو إعطاء السكين لذبح حيوان يصطاده غيره .  
ويجوز للحاج أن يقتل حيواناً مؤذياً كالأسفعى ، وله كذلك أن يتحر الأضاحى  
كجزء من مناسك الحج . أما ما عدا ذلك فحرام على الحاج أن يصطاده أو أن  
يؤذى أى حيوان خلال رحلته . وصيد الحيوانات جائز في الأحوال العادلة ولكن  
محرم على الحاج . وهذا في حقيقة الأمر تنفيذ الحكم شرعاً عام يقدر كبير من  
المبالغة . فيجب على الإنسان في كل الأحوال ألا يقتل إنساناً وألا يؤذى حيواناً .  
وهذا حكم شرعاً عام مطلوب من كل الناس في كل الظروف ولكن إطلاقه على  
حيوانات الصيد خلال الحج يهدف إلى شحذ حس الحاج بهذا الحكم العام ،  
لكن يراعيه مراعاة أفضل عقب عودته من الحج فيعيش مسالماً بين الناس في غير  
أيام الحج .

(١) سورة البقرة : ١٩٧ .

## حياة الانضباط

يمكن وصف الحياة المسلمة في جملة واحدة بأن نقول : إنها أن يعيش المرأة حياة منضبطة . ورحلة الحج وسيلة ل التربية خاصة على هذه الحياة المنضبطة . وقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذه الخاصة من خواص الحج بقوله : « من قضى نسكه وسلم المسلمين من لسانه ويده غفر له ما تقدم من ذنبه »<sup>(١)</sup> .

فالشيء الذي يجب على الحاج أن يتبعنه بصورة خاصة هو ألا يؤذى بلسانه ويده أحدا آخر . والحج الذي يغفر ما تقدم من ذنوب صاحبه هو هذا الذي لم يستخدم فيه الحاج لسانه أو يده ضد الآخرين .

## إنكار الذات

من مئونيات الحج استخدام أشياء الزينة واللذة المادية . وبدأ عمل الحج بالإحرام ، ذلك اللباس البسيط الذي يجب على كل حاج أو معتمر أن يلبسه على حدود الحرم . فالإحرام هو أن ترتدي ملابس الفقراء عند زيارة الكعبة .

وهذا هو أول الخطوط الرمزية التي يؤكد الله تعالى بواسطتها على كل عباده بأن كل البشر سواسية ، وأن الأشياء الظاهرة التي يتفاخر بها الناس أو يحتقرون شخصاً أو يعظّمون آخر بسببها هي كلها باطلة عند الله . فالعبد سواسية عند الله تماماً كما ترى مئات الآلاف من الحجاج مرتدية ملابس من نوع واحد خلال أيام الحج . فالإحرام مظاهره عملية للمبدأ الإسلامي القائل بمساواة البشر . وما على الذين يريدون أن يكونوا من أفضل عباد الله إلا أن يخلعوا عن أنفسهم كل الملابس المزيفة ويرتدوا اللباس الإلهي وحده .

وسئل رسول الله ﷺ عن وصف الحاج فقال : « الشعث التفل »<sup>(٢)</sup> .

(١) تفسير ابن كثير ، تفسير الآية ١٩٧ من سورة البقرة .

(٢) أخرجه ابن ماجه ، كتاب المسالك ، باب ما يجب الحج .

والشاعر : المغبر الرأس ، المتتفق الشعر ، الحاف الذى لم يدهن<sup>(١)</sup> والتفل : الذى ترك استعمال الطيب ، من التفل وهى الرجع الكريهة<sup>(٢)</sup> . فهذة الكلمات تصف الحاج الحقيقى الذى لا يجد فرصة لتصفيق شعره ، وتنظيف جسده وهو وصف إنسان منهك في أداء هدف ما .

وعندما يقف المرأة نفسه هدف ما فهو لا يجد فرصة للتزيين والأمر بأن يكون وضع الحاج على هذا النحو هو درس مؤكدة ، لكنه يقضى حياة هادفة وينشغل بالهدف الإلهي فلا يجد فرصة للتزيين ظاهره وينسى الملذات الواقية والمتضمنات الشخصية باحثا عن المهد الأعلى .

وقد جاء في القرآن في معرض الأمر بالحج : ﴿ وَتَرَوْدُوا فِي أَنْ خَيْرُ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَأَنْقُونَ يَا أُولَى الْأَلْبَابِ ﴾<sup>(٣)</sup> . وكان العرب في قديم الزمان يظنون أن الخروج للحج بالزاد من الأعمال الدينية وأن الذي يخرج للحج بدون الأمانة الدينية يتمتع بالتقوى والدين . وكان أمثال هؤلاء يقولون : « نحن متوكلون » ولكن القرآن يخبرنا بأن مثل هذه المظاهر الظاهرة ليست من الدين . فالدين يتعلق بالقلب والعقل دون الظواهر . والشيء الذي يجب على المرأة أن يحرص عليه هو ألا يخلو قلبها وعقلها من تقوى الله ، وليس أن تكون جعبتها خالية من الطعام والشراب .

(١) انظر لسان العرب ، لابن منظور ، مادة مشعث .

(٢) انظر لسان العرب ، لابن منظور ، مادة تفلى .

(٣) سورة البقرة : ١٩٧ .

الفصل السابع  
حج رسول الله

## الفصل السابع

### حج رسول الله

كان النبي إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام هما اللذان أقاما نظام الحج . وتعرض هذا النظام لفساد كبير عبر العصور إلا أن العرب ظلوا يمارسون شعائره بصورة دورية كل سنة . وكان الحج حيَا قائماً مع الزيف والفساد الذي طرأ عليه في ظل الجاهلية حين ولد محمد رسول الله عليهما مكة .

كم عدد حجات الرسول ؟ ينقسم هذا السؤال إلى شقين من الناحية التاريخية . فيتعلق الشق الأول بالحج قبل الهجرة بينما يتعلق الشق الثاني بالحج في أعقاب الهجرة . ولدينا معلومات كاملة فيما يتعلق بالشق الثاني . أما ما يتعلق بالشق الأول فلا توجد لدينا معلومات قطعية .

وقد حج رسول الله عليهما مكة مرة واحدة بعد الهجرة ويعرف هذا الحج عموماً بحججة الوداع . وتقول بعض الروايات إن رسول الله عليهما مكة أدى فريضة الحج مرتين قبل الهجرة . ولكن لا تتوفر لدينا معلومات قطعية حول هذا الجانب . فنجد في سنن الترمذى وابن ماجه أن رسول الله عليهما مكة أدى فريضة الحج مرتين قبل الهجرة بينما لا يذكر صحيح مسلم إلا حجة واحدة ويقول بعض المحدثين إن رسول الله كان يحج كل عام وفق عادة أهل مكة . ونجد من رواية طبقات ابن سعد أن رسول الله لم يحج إلا مرة واحدة بعد النبوة . ونحن نجد هذا النقص الشديد في المعلومات حول حججه عليهما مكة قبل الهجرة بينما نجد الكم الوافر من الروايات حول حجحة الوداع لدرجة أنه يمكن وضع يوميات كاملة من بدء مسيرته للحج إلى نهايتها . فما هو الفرق بين هاتين الحالتين ؟ الفرق يكمن في الفارق الزمنى .. فإن

رسول الله ﷺ كان شخصية مغمورة بمكة قبل الحجرة ، فلم تكن له من أهمية خاصة تذكر في عيون عامّة الناس .. أما حجّة الوداع فووّقعت في أواخر حياته حين كان قد أصبح فاتحاً وحاكماً على الجزيرة العربية . وهذا هو الفارق بين مرحلتي حياته المكّية والمدّنية . فنجد أنّ التاريخ لم يسجل وقائع حاجاته الأولى بينما سجل حجّته الأخيرة بتفصيل كبير ، فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . وقد حاول بعض المؤلفين جمع الروايات المتّبعة حول حجّة الوداع ، وفيما يلي بعض الكتب التي نجد فيها جمّعاً لهذه الروايات :

لابن حزم الأندلسي	حجّة الوداع
لابن كثير	السيرة النبوية
لابن قيم الجوزية	زاد المعاد
للزرقاوي	شرح المواهب اللدنية
للشيخ محمد زكريا الكاندھلوی	حجّة الوداع وجّزء عمّرات النبي

ونذكر فيما يلي بياناً مختصرًا لوقائع هذه الحجّة :

لقد أدى النبي ﷺ حجّة الوداع سنة ١٠ هـ . وانتقل إلى الرفيق الأعلى بعد ذلك بشهرين بالمدينة المنورة . ويسمى هذا الحجّ بحجّة الوداع لأنّ رسول الله ﷺ ودع المؤمنين في مني وعرفة وقال لهم : « إني لا أدرى لعلّ لا ألقكم بعد عامٍ هذا بهذا الموقف أبداً » .

وطّنّدّ الحجّة أهمية خاصة من نواحٍ متعددة ، ولذلك أطلق الناس عليها أسماء متعددة مثل حجّة الوداع وحجّة الإسلام وحجّة البلاغ وحجّة الكمال وحجّة التّمام ..

وكانت مكة قد افتتحت في رمضان سنة ٨ هـ ، ولم يحجّ رسول الله ﷺ ذلك العام أو في العام التالي ، بل توجهت جماعة من ثلاثة مائة من المسلمين من

المدينة للحج سنة ٩ هـ بأمر منه . وكان أبو بكر الصديق هو قائد هذه الجماعة . وقد اشترك في هذا الحج مشركون الجزيرة العربية ولكن أعلن خلال هذا الحج ( ٩ هـ ) أنه لن يسمح لمشاركة بالحج بعد هذا العام .. وقد قام بهذا الإعلان على رضى الله عنه .

وقدر رسول الله ، ﷺ ، أن يحج في العام التالي فأرسل إلى القبائل يخبرها بنيته هذه لكي يشارك في هذا الحج أكبر عدد ممكن من المسلمين . وكانت عبادة الحج مستمرة بلا انقطاع منذ سنها إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، ولكن شابها الكثير من الطقوس الجاهلية .. ولذلك كان ضرورياً أن يشاهد الرسول أكبر عدد من الناس وهو يؤدي أركان الحج وأن يقلدوه في الحج بعد ذلك . ومثل هذا الأعمال لا يمكن فهمها وإدراكها جيداً إلا بمشاهدتها ، وقليلاً ما يمكن فهمها بالكلام فقط .

ويقول جابر بن عبد الله أنه رأى رسول الله ﷺ وهو على مطيته يرمي الجمرات فخاطب الناس يقول : « أيها الناس خذوا عنى مناسك الحج فقد لا أحج بعد هذا العام » .

وحين انتشر خبر عزم رسول الله ، ﷺ ، على أداء الحج في أطراف الجزيرة بدأ الناس يتقاطرون على المدينة ، فاجتمع فيها نحو مائة ألف من المسلمين . وخرج رسول الله ، ﷺ ، من المدينة في ٢٥ من ذى القعدة سنة ١٠ هـ .. وأخذ الناس يتضمنون إلى موكيه في الطريق .. ويقول جابر إنه كان يرى البشر أثنا جال بيصره .. وارتفاع عدد الذين رافقوا موكب الرسول إلى ١٢٥ ألفاً حفظ ووصل إلى مكة وكان رسول الله ، ﷺ ، يمتلك ناقه معروفة بالقصواء . وكانت ناقه معروفة بسرعتها ولكن كان عليها زاد لا يساوى أربعة دراهم . وبكلمة أخرى : كان الرسول يلتجأ إلى أعلى المعاير عند الحاجة بينما كان يفضل البساطة عندما تنتهي حدود الحاجة .

وكان رسول الله قد صلى صلاة الظهر مع الناس قبل مغادرة المدينة ، فخطب في الناس يشرح لهم فرائض الإحرام وأدابه ثم انطلق من المدينة ويات بذى الحليفة التي هي ميقات أهل المدينة وتبعد عنها خمسة أميال . وفي اليوم الثاني اغتنص وصل صلاة الظهر من ركعتين وأحرم بنية الحج والعمرة ( القرآن ) ثم انطلق يلبي : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ولملك ، لا شريك لك ». .

وهكذا كان النبي يسيرا مع أصحابه من المدينة إلى مكة . وكلما وجد مرتقعا في الطريق علاه الرسول مكبرا ربه وكأنه يعلن عظمته الرب من تلك الربوة ليسمعه العالم أجمع .

ووصل الرسول ﷺ مكة في الرابع من ذى الحجة .. وقطع هذا السفر من المدينة إلى مكة في تسعه أيام . وكان الوقت عصرا ، وظل الرسول يسير حتى دخل الحرم ، وعندما وقع بصره على بيت الله قال : « اللهم زد بيتك هذا تشريفا وتعظيمها وتكريرا ومهابة » ، ثم أخذ يرفع يده مكبرا يقول : « اللهم أنت السلام ومنك السلام ، حينا ربنا بالسلام » .

ولم يصلّ الرسول ركعتي تحيّة المسجد عندما دخل الحرم بل بدأ بطواف القدوم فدنا من الحجر الأسود واستلمه قائلا : « باسم الله ، الله أكبر » .. ثم طاف حول الكعبة سبع مرات بادئا من يمينه جاعلا الكعبة على يساره . وترمل - أي طاف بخطى سريعة - في الأشواط الثلاثة الأولى ثم تابع الطواف بالخطى العادي في الأشواط الباقية . وكان رداء الإحرام على كفه الأيسر بينما كان كفه الأيمن عاريا . ويطلق على هذا الأسلوب وصف « الاضط Bauer » . وكلما مرّ الرسول أمام الحجر الأسود خلال الطواف أشار إليه واستلمه بعصاه .

والدعاء الآتي مأثور بين الحجر الأسود والركن الجناني : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .. وهناك أدعية أخرى مأثورة عن

النبي للطواف .

وبعد الانتهاء من الطواف تقدم الرسول إلى مقام إبراهيم وتلا الآية القرآنية الآتية : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾<sup>(١)</sup> . وأدى الرسول صلاة ركعتين عند مقام إبراهيم ثم تقدم إلى الحجر الأسود وقبله ثم توجه إلى الصفا وحين وصلها قال : « إن الصفا والمروة من شعائر الإسلام ، أبدأ بما بدأ الله به » .

ثم علا جبل الصفا حتى تراها له الكعبة فتوجه إليها وقال : « لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير . لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده » .

ثم نزل من الصفا متوجها إلى المروة وسعى بين الجبلين وأخذ يجري حين وصل إلى المنسفخض بينهما - الذي تدل عليه عالمة الميلين الأخضرین الآن - وحين انتهى المنسفخض أخذ يمشي بالسرعة العادیة .. وحين وصل المروة اعتلاها حتى تراها له الكعبة وهنا أيضاً كبر وهلّ ودعا ربّه .. وهكذا سعى بين الصفا والمروة سبع مرات . وتقول بعض الروايات إنه سعى في الأشواط الأولى على قدميه ثم، أكملها على راحلته . ولعله فعلها لكي تشاهد عمله الجماهير الغفيرة بصورة جيدة . وأنهى الرسول شوطه السابع عند المروة .

وكان الرسول الكريم قد نزل بمكان يقال له الأبطح حين وصل مكة في الرابع من ذى الحجة ومكث بهذا المكان حتى الثامن من ذى الحجة وأخذ يصل قصرا مع أصحابه بهذا المكان ثم توجه مع أصحابه إلى مني في الثامن من ذى الحجة ، ولم يقم بطواف الكعبة عند الذهاب إلى مني . وصل صلوات الظهر والعصر والمغرب والعشاء بمني في ذلك اليوم وبات بها تلك الليلة . وانطلق إلى عرفات في التاسع من ذى الحجة قبل طلوع الشمس ونزل بخيصة بنمرة بوادي عرفة . وكان

(١) سورة البقرة : ١٢٥

من الصحابة من يلبي ومن يكابر ، ولم يكن هناك أحد يعترض على الآخر . لما حان الزوال ركب الرسول الكريم ناقته وتوقف في بطن عرفة . وهنا في موقع مسجد ثمرة الحال خطب خطبته المعروفة بخطبة حجة الوداع . وقد وردت أجزاء متفرقة من هذه الخطبة ، وكذلك الخطبة الأخرى التي ألقاها الرسول الكريم في منى ، في كتب الأحاديث وستنتقل مجموعها في الصفحات القادمة .

وكان هذا يوم الجمعة ( ٩ ذو الحجة ) .. وحين انتهى الرسول ، ﷺ ، من خطبته ، أمر ( بلا لا ) بالأذان ، فأذن ، فصل رسول الله ﷺ صلاته الظاهر والعصر جمعا ، ركعتين ركعتين ، بأذان واحد وإقامتين . ولم تكن هذه صلاة جمعة بل صلاة الظاهر لأنه ﷺ لم يجهر بالقرآن ، كما أنه ﷺ لم يصل سنة أو نافلة بعد أداء الفرض .

وبعد أداء الصلاة جاء رسول الله ﷺ إلى ذلك الموضع من عرفات الذي يسمى الآن بال موقف ، وظل يدعوه وهو على ناقته إلى أن أدركه الغروب . وقال رسول الله : إن الدعاء في هذا اليوم أفضل الأدعية ... ويمكنا أن نستشعر شيئا من الأحساس الريانية التي كانت تملأه آنذاك من بعض الكلمات التي قالها حينذاك وهو يدعوه ربه :

« اللهم إِنِّي نَسْمَعُ كَلَامَكَ ، وَتَرَى مَكَانِي ، وَتَعْلَمُ سَرِّي وَعَلَانِيَّتي ، لَا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ مِّنْ أَمْرِي ، أَنَا الْبَائِسُ الْفَقِيرُ ، الْمُسْتَغْيَثُ الْمُسْتَجِيرُ ، الْوَجِيلُ الْمَشْفَقُ الْمَقْرُ الْمُعْتَرَفُ بِذَنْبِي ، أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ الْمُسْكِنِي وَأَتَهْلِكَ إِلَيْكَ ابْتِالَ الْمَذْنَبِ الْدَّلِيلُ ، وَأَدْعُوكَ دُعَاءَ الْخَائِفِ الْضَّرِيرِ ، مَنْ خَضَعَتْ لَكَ رُقْبَتِهِ وَفَاضَتْ لَكَ عَيْنَاهُ وَذَلَّ جَسْدَهُ وَرَغَمَ أَنْفَهُ لَكَ اللَّهُمَّ ! لَا تَجْعَلْنِي بِدُعَائِكَ ربَّ شَقِيقًا وَكَنْ لِي رُؤُوفًا رَحِيمًا ، يَا خَيْرَ الْمُسْتَوْلِينِ وَيَا خَيْرَ الْمُعْطَيْنِ » ..

كان الناس يأتون إليه يستفسرون عن مسائل الحج . وأتاه ناس من أهل نجد ، فقالوا : يا رسول الله ! كيف الحج ؟ قال : « الحج عرفة . فمن جاء قبل

صلاة الفجر ليلة جمع فقد تم حججه <sup>(١)</sup>.

ونزلت الآية القرآنية : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَنْتُمْ عَلَيْكُمْ نَعْمَلْتُ  
وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيْنًا﴾ <sup>(٢)</sup>. هنا بعرفة بعد خطبة حجة الوداع . وتوجه  
رسول الله ﷺ إلى المزدلفة بعد غروب الشمس . وأجلس أسامة بن زيد خلفه  
على راحلته ، وظل يكبر طول الطريق إلى أن وصل المزدلفة . ومنع رسول الله  
الناس من الإسراع فقال لهم : « أَبِيَا النَّاسُ ، عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ ، إِنَّ الْبَرَّ لِيُسَبِّحُ  
بِإِيجَافِ الْخَيْلِ وَإِلَيْلِ» <sup>(٣)</sup>.

وفي المزدلفة أمر رسول الله ﷺ بلا لا بالأذان ، وقام بعد الأذان فصل المغرب قبل  
أن تبرك الجمال وتنقل منها الأمتعة . وصل ركعتي العشاء حين نقل الناس  
أمتعتهم . وقد صل المغرب والعشاء بأذان وإقامتين ، ولم يصل شيئاً غير الفرض ،  
ثم استراح ونام ليته حتى الفجر . وصل الفجر مبكراً في الصباح . وكان هذا هو  
اليوم العاشر من ذى الحجة . وبعد الفجر ركب رسول الله ﷺ راحلته وذهب  
إلى المشعر الحرام حيث ظلل يدعو ربه متوجهاً إلى القبلة ، إلى أن تبدد الظلام .  
وغادر المزدلفة قبل طلوع الشمس ، وظل يكابر دون انقطاع وكان الفضل بن  
عباس جالساً خلفه على راحلته فأمره أن يتبقى له سبع جمرات لرمي الجمار .  
وحين وصل رسول الله ﷺ إلى وادي محرس أمر الناس بأن يجاوزوه بسرعة ، وكذلك  
دفع بناقه للإسراع .. ووادي محرس هو الموضع الذي نزل فيه العذاب الإلهي على  
 أصحاب الفيل . واستمر رسول الله ﷺ في مسيرته إلى أن وصل منى . ثم جاء  
إلى جمرة العقبة ووقف هنا بحيث كانت مكة على شمالك ومنى على يمينه ورمى

---

(١) أخرجه ابن ماجة ، كتاب المسائق .

(٢) سورة المائدة : ٣ .

(٣) أخرجه أبو داود .

رسول الله وهو على راحلته سبع جمار ، جمرة بعد جمرة ، وهو يكبر عند رمي كل جمرة . وهذا هو العمل الذي يقال له « رمي الجمرات » . وأوقف رسول الله التلبية بعد رمي الجمرات ، وعاد إلى مني . وبين رسول الله خلاصة الدين بالكلمات الآتية : « اعبدوا ربكم ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهربكم ، وأطعوها إذا أمرتم : تدخلوا جنة ربكم » .

وألقى رسول الله ، عليه السلام ، خطبة بمنى وكانت هذه الخطبة مشابهة لخطبته بعرفة .. ولعل هذا التكرار يعود إلى رغبته في أن يسمعه من لم يسمعه من قبل وليري عدد كبير من الناس مضمون الخطبة بصورة جيدة . وما أعلنه رسول الله هنا : « لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا أحمر على أسود إلا بالتفوي » <sup>(١)</sup> .

وكذلك قال رسول الله : « ألا إن الشيطان قد يس أن يبعد في بلدكم هذا أبدا ولكن رضي عما دون ذلك مما سيكون له طاعة في بعض ما تحقرنون من أعمالكم » <sup>(٢)</sup> . ثم توجه رسول الله إلى مقام النحر بمنى فنحر ثلاثة وستين بدنة بيده يوم النحر . ومن باب الصدف أن رسول الله كان قد بلغ ثلاثة وستين سنة من عمره أيضا حينذاك . ثم توقف وأمر عليا بأن ينحر مزيدا من الجمال فأكمل على المائة . وبعد الفراغ من النحر طلب رسول الله معمر بن عبد الله ، وكان حلاقا ، فحلق شعره وقلم أظفاره . وأمر رسول الله النساء بتقصير الشعر ومنعهن من الحلق . ثم امتطى راحلته متوجها إلى مكة وقال للناس إنه يمكنهم نحر الأضحى في أمكنة أخرى من الحرم إلى جانب مقام النحر بمنى . وأمر بطبع قليل من لحم الأضحى فأكل منه ووزع الباقى بين الناس . وأمر الناس أن

(١) سنن أحمد عن أبي نصرة .

(٢) أخرجه ابن ماجه ، كتاب المناسك ، باب الخطبة .

يأكلوا ويطعموا الآخرين من لحم الأضاحى ويتزودوا (أى أن يجففوه ليحتفظوا منه بما شاءوا) .

ووصل رسول الله مكة في العاشر من ذى الحجة وأدى طواف الإفاضة قبل الظهر ، وهو الطواف الذى يطلق عليه اسم « طواف الزيارة » أيضا . ولم يكن رسول الله يقوم بالرمل أو الضبطاع أو السعى خلال هذا الطواف ، ثم جاء إلى بئر زمزم وشرب من مائه وهو واقف .. وكان أناس من بنى عبد المطلب يسقون الناس على ما جرت عليه العادة . ورجع رسول الله إلى منى في اليوم نفسه وبات بها .

وفي اليوم التالي - ١١ ذى الحجة - انتظر الرسول زوال الشمس وعندما حان وقت الزوال نزل عن راحلته وتوجه لرمي الجمرات فرمى بالجمرة الأولى سبع جمرات ، واحدة بعد الأخرى .. وأنخذ يدعوا لبعض الوقت ، ثم رمى الجمرات بالطريقة نفسها على الجمرة الوسطى ووقف يدعوا ربه لبعض الوقت ، وكان يكبر عند رمي كل جمرة ، ثم ذهب إلى جمرة العقبة فرمى بها سبع جمرات . ثم تنسى عن المكان .

وأقام رسول الله بنى يومي ١٢ و ١٣ ذى الحجة أى طوال أيام التشريق الثلاثة . واستمر يصلى الصلوات قصرا دون جمع . وخرج رسول الله متوجها إلى مكة بعد زوال الشمس في الثالث عشر من ذى الحجة . وأقام في الطريق بوادي الخصب (بالأبطح) ، وصلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء هنا وبات بهليلته ، وقام قبل الفجر وذهب إلى الحرم ، وطاف طواف الوداع ، وأدى صلاة الفجر بالكعبة . ومن ثم أمر الحجاج بالمسير فتوجه الكل إلى مناطقهم ، أما رسول الله فسار بالمهاجرين والأنصار إلى المدينة .. وكان قد أقام بمكة - منذ قدومه إلى أن خرج منها - عشرة أيام .

وعندما وصل رسول الله إلى ذى الحليفة بالقرب من المدينة توقف ويات به ، وتوجه في الصباح قبل طلوع الشمس إلى المدينة . وحين وقع بصره على سواد المدينة كبر ثلاثا : « الله أكبر لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قادر . آئيون تائبون ، عابدون ساجدون لربنا حامدون ، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده » .

ويقول أسماء بن شريك : خرجت مع رسول الله حاجا فكان الناس يأتونه فمن قال : يا رسول الله سعيت قبل أن أطوف أو قدمت شيئاً أو أخرب شيئاً فكان يقول « لا حرج إلا على رجل افترض عرض رجل مسلم وهو ظالم فذلك الذي حرج وهلك »<sup>(١)</sup> .

### دروس

هناك دروس هامة في الأسلوب الذي أدى به رسول الله حجة الوداع .. ومن أهم هذه الدروس أن الحياة الاجتماعية تسير دائماً على هدى التقاليد ، فتحطيم التقاليد الصالحة يؤدي إلى خلل لا سبيل إلى تلافيه في الحياة الاجتماعية ، ولذلك يجب أن نقوم بكل ما نقوم به في الحياة الاجتماعية بدون تحطيم التقاليد القائمة الصالحة .. وتحطيم التقاليد ليس هو الأسلوب الإسلامي . وقد روى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله مكث بالمدينة تسع سنين لم يحج ثم أذن في الناس في العاشرة أن رسول الله حاج فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ويعمل بمثل عمله فخرج رسول الله وخرجنا معه<sup>(٢)</sup> .

ويثور السؤال في ضوء هذه الأسوة النبوية : لم لم يحج رسول الله لمدة تسع سنين ؟ ومن الظاهر أنه كانت هناك مخاوف من أن قريشاً ستقاوم مجده للحج في

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب المذاهب ، باب فيمن قدم شيئاً قبل شيء في حججه .

(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب الحج ، باب صفة حج النبي .

السنوات الأولى بعد الهجرة مثلاً متعته من أداء العمرة عند واقعة الحديبية . ولكن هذا العائق زال عندما فتحت مكة في رمضان سنة ٨ هـ وكذلك لم يحج رسول الله في السنة التالية (٩ هـ) .. فلم يحج إلا في السنة العاشرة من الهجرة ، وتوفي إلى رحمة الله بعد ذلك بشهرين ويعود السبب في هذا إلى أن رسول الله كان يرغب في أن يتم الإصلاح المطلوب في نظام الحج بدون تحطيم التقاليد .

والتقويم السنوي من نوعين : قمري وشمسي .. ويتحدد التقويم القمري بدowام القمر ويمكن لكل شخص أن يشاهده فهو يكبر ويصغر ويختفي ليظهر من جديد .

أما التقويم الشمسي فيحدده الرياضيون بعد إجراء عمليات حسابية دقيقة لدوران الشمس .. وبكلمة أخرى : التقويم القمري تقويم طبيعي بينما التقويم الشمسي تقويم حسابي .

وقد ارضى الله تعالى التقويم القمري لنظام العبادات . وليس هذا لأن التقويم القمري «أفضل» من غيره أو لأنّه يتمتع بقدسية ، فالله الذي حدد دوران القمر هو الذي حدد دوران الشمس . فكيف يمكن أن يكون أحد التقويمين مقدساً والآخر غير مقدس؟ . أما سبب تفضيل أحد التقويمين على الآخر فيرجع إلى أهمية العملية ولا علاقة له بالعقيدة . وتراعى كل العبادات البساطة الطبيعية ولذلك أُسست العبادات على التقويم القمري . وهذه هي الحقيقة التي رويت في أحدي الروايات كما يلى :

عن ابن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله : «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب . الشهر هكذا وهكذا وهكذا ، يعني تمام الثلاثين ، يعني مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين »<sup>(١)</sup>

(١) متفق عليه .

والشهر القمري قائم على رؤية الملال ، وهو لذلك يتكون من تسعه وعشرين يوماً أحياناً وثلاثين يوماً أحياناً أخرى .. وقد أوضح رسول الله هذا الأمر بصورة بسيطة بأن بسط أصابع يديه ثلاث مرات يعني  $10 + 10 = 30$  ، ثم فعل الشيء نفسه ولكنه عقب إبهامه في المرة الأخيرة يعني  $9 + 10 + 10 = 29$  . وهذا لا يعني أن التقويم القمري تقوم « ديني » وأن من الواجبات الدينية أن تم كل المعاملات والحسابات وفق التقويم القمري فحسب ، بل إن التقويم القمري يتعلق بالعبادات ولابد من مراعاته في العبادات لكي يؤدّبها كل شخص يسر وتناغم بالآخرين .

وكان نظام الحج الذي وضعه إبراهيم عليه السلام قائماً على التقويم القمري مراعاة لهذه المصالح ، ولكن قريش مكة ، الذين كانوا يتولون رعاية شئون الكعبة ، أرادوا أن يحددوا أيام الحج وفق التقويم الشمسي لكي تقع أيامه في موسم واحد دائماً ، الأمر الذي كان مفيدة لتجارتهم .. واستعانت قريش لهذا الغرض مبدأ « النسيء » أو « الكبيسة » من الشعوب الأخرى وأسْجَرْتُها فيما يتعلق بالحج ، وتكون السنة الشمسية من ٣٦٥ يوماً بينما تكون السنة القمرية من ٣٥٤ يوماً ، أي أن هناك فارق أحد عشر يوماً بينهما ، وب يصل هذا الفارق إلى ثلاثة أشهر كل ثمانى سنوات . وكانت قريش تضيف إلى الشهور القمرية أيامًا بقدر هذا الفارق لكي يمشي الشهوران القمري والشمسي معاً . وهكذا بدأت الشهور القمرية تقع في غير أيامها الحقيقة . وكان هذا الدوران يتم في ٢٣ سنة . وهكذا استمرت قريش تقيم الحج لمدة ٣٣ سنة متواصلة في غير أيامه الأصلية .. وكان الحج سيقع في تاريخه الإبراهيمي الأصلي - أي في ذى الحجة - مرة أخرى في العام الرابع والثلاثين .. وعندما فتحت مكة في رمضان سنة ٨ هـ كان هذا الدوران ذو الثلاث وثلاثين سنة في آخر مراحله أي أن موسم الحج خلال ستى ٨ و ٩ هـ كان يقع في ذى القعدة وفق طريقة « النسيء » السائدة حينذاك ، أما

في السنة العاشرة المجرية فكان هذا الدوران سيكتمل ليقع الحج مرة أخرى في أيامه الأصلية أي في ذى الحجة المطابق مع التقويم القمرى الحقيقى .

وكان رسول الله ﷺ مجددا للدين الإبراهيمى وكان الله تعالى قد كلفه بأن يعيد إنشاء نظام الحج على أسمه الإبراهيمية . وكان يمكن للرسول ﷺ أن يعلن هذا سنة ٨ هـ بصفته فاتح مكة ولكنه لم يفعل هذا . وهكذا كان يمكن لرسول الله أن يصدر التعليمات في السنة التالية لأداء الحج في أيامه الإبراهيمية ، ولكنه لم يقم بهذا العمل ألام إلا في السنة العاشرة المجرية حين وصلت أيام الحج تلقائيا إلى الأيام الإبراهيمية .

والسبب في هذا هو أن رسول الله ﷺ لو فعل هذا في الستين الثامنة والتسعة لخطم تقاليد قائمة منذ قرون بينما مطلبه كان سيتحقق في السنة العاشرة بدون تحطيم هذه التقاليد . وللتقاليد أهمية قصوى في الحياة الاجتماعية ولذلك يحاول الرسول دائما أن يحصل على هدفه بدون تحطيم التقاليد <sup>(١)</sup> . فأدى رسول الله ﷺ الحج في السنة العاشرة في أيامه الإبراهيمية وأعلن أن هذا سيحدث للأبد من الآن فصاعدا . وهذه هي الحكمة التي يتبناها رسول الله بالكلمات الآتية في خطبة حجة الوداع : « أيها الناس : إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض وإن عدة الشهور عند الله أثنا عشر شهراً <sup>(٢)</sup> .. ويعنى هذا أن التاسع من ذى الحجة يقع في اليوم مرة أخرى في موقعه الأصلى بعد دوران ثلات وثلاثين سنة ، وهذا يطابق نظام الطبيعة ، واليوم يلغى التقويم الصناعي . ومن الآن فصاعدا سيؤدى الحج كل سنة في ذى الحجة وفق هذا التقويم الطبيعي .

---

(١) وهذا يعني رفض الرسول عليه السلام - والإسلام - للأسلوب الثوري !!

(٢) السيرة النبوية ، لابن هشام ، ط . الحلى ، ٦٠٤/٢ .

## خطبة حجة الوداع

خطبة الوداع هي آخر خطبة ألقاها رسول الله ﷺ . وهذه هي الخطبة التي ألقاها بجبل عرفات في التاسع من ذى الحجة سنة ١٠ هـ . ويمكن اعتبار حجة الوداع أكبر تجمع إسلامي في العهد النبوى ، فقد تجمع بعرفات في ذلك الوقت نحو ١٢٥ ألفاً من أصحاب رسول الله ﷺ . وقد ألقى رسول الله هذه الخطبة قبل وفاته بنحو شهرين ، وأعلن فيها بصورة أخيرة ونهاية كل تلك الأشياء التي يُبعث من أجلها .

وتذكر كتب الأحاديث حجة الوداع بصورة مفصلة ، ولكن لا يوجد المتن الكامل لخطبة حجة الوداع في أي من هذه الروايات . بل نجد أجزاء متفرقة في عدد من الروايات ، وقد حاول بعض أهل العلم أن يجمعوا هذه الأجزاء المتفرقة في مجموعة واحدة .

ويمكن أن نلخص هذه الخطبة بكلمة واحدة : إنها إعلان عظمة الله ومساواة البشر .. فقد أخبرنا رسول الله أن هناك فارقاً واحداً بين البشر وهو الفارق بين المؤمنين بالله والخارجين عليه . أما الفوارق الأخرى فهي كلها اصطناعية ، وقد ألغى الله تعالى كل هذه الفروق ونصب أمته مسئولة للأبد لكي تعلن هذا على العالم دوماً . وكان المظاهر العملي لهذا الإعلان أن عبدين محربين كانا أقرب الناس إليه عندما ألقى هذه الخطبة في نحو ١٢٥ ألفاً من البشر معلناً عظمة الله ومساواة البشر ، وكان أحدهما بلا لحشى الذي كان يمسك بخtram ناقته ، وكان الآخر هو أسامة بن زيد الذي كان يمسك بقطعة من القماش ليقى رسول الله من حر الشمس .

وفيما يلى نص هذه الخطبة التي خطبها رسول الله ﷺ يوم عرفة :  
أيها الناس :

﴿إِنْ دَمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحْرَمَةٌ يَوْمَكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي

بلدكم هذا . ألا وإن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع . ودماء الجاهلية موضوعة . وإن أول دم أضعه من دمائنا : دم ابن ربيعة بن الحارث [ كان مسترضاً في بني سعد فقتلته هذيل ] . وريا الجاهلية موضوع ، وأول ريا أضع من ريانا : ريا العباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله ، واتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتوهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكن عليين ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح . وطن عليكم رزقهم وكسوتهم بالمعروف . وقد تركت فيكم ما لن تضلوه بعده إن اعتصمت به : كتاب الله وسنة نبيه . وأنتم تُسألون عنى ، فماذا أنتم قائلون ؟ [ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكبها إلى الناس : « اللهم اشهد » [ ثلاث مرات ] .

أما الخطبة التي ألقاها رسول الله ﷺ ، في أوسط أيام التشريق فنصها كما يلى :

« يا أيها الناس ! أتدرون في أي شهر أنتم وفي أي يوم أنتم وفي أي بلد أنتم ؟ » [ فقالوا : في يوم حرام ، وبلد حرام ، وشهر حرام ] ، قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا ، وفي بلدكم هذا ، إلى يوم تلقونه . اسمعوا متى تعيشوا : ألا لا تظلموا ! ألا لا تظلموا ! ألا لا تظلموا ! إنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه ، ألا وإن كل دم ومعال ومؤثرة كانت في الجاهلية تحت قدمي هذه ، إلى يوم القيمة وإن أول دم يوضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، ألا وإن كل ريا في الجاهلية موضوع ، وإن الله عز وجل قضى أن أول ريا يوضع ريا العباس بن عبد المطلب ، لكم رؤوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تُظلمون . ألا وإن الزمان قد استدار كهيته يوم خلق السماوات والأرض [ ثم قرأ ] ﴿ إِنْ عَدْدَ الشَّهْوَرِ عِنْدَ اللَّهِ أَثْنَا عَشْرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حِرْمَانٌ ذَلِكُمْ بَلْدَكُمْ هَذَا . أَلَا وَإِنْ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهْلِيَّةِ تَحْتَ قَدْمِي مَوْضِعٌ . وَدَمَاءُ

الدين القيّم فلا تظلموا فيهن أفسكم ﴿٤﴾ . ألا لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا إن الشيطان قد يش أن يعبده المصلون ؛ ولكنه رضى بالتحريش بينكم ، واتقوا الله في النساء ، فإنهن عندكم عوان لا يملكون لأنفسهن شيئا ، وإن هن عليكم حقا ، ولكن علمهن حقا : ألا يوطعن فرشكم أحدا غيركم ، ولا يأذن في بيوتكم لأحد تكرهونه . فإن خفتم نشوذهن ، فعظوهن ، واهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح ، وطن رزقهن وكسوةهن بالمعروف ، وإنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله عز وجل ، ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤددها إلى من ائمنه عليها . [ ووسط يديه وقال : ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت ، ثم قال : ] ليبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلغ أوعى من سامع «<sup>(١)</sup> .

وخلصة هذه الخطبة كلها تكمن في كلمة « ألا لا تظلموا ، ألا لا تظلموا » .. فهذه الخطبة تهدف إلى سد كل أبواب الظلم سواء أكانت ناتجة عن أوهام كاذبة أو قوانين خاطئة أو أناية فرد من الأفراد أو استبداده .. ولهذا أعمل رسول الله أن دماء المسلم وأمواله وعرضه حرام على أخيه المسلم إلا أن يكون بسند من الشريعة الإلهية ، فمحظ كل الأعمال التي كانت تم وفق التقاليد الجاهلية والعواطف الانتقامية حظرا مطلقا . وكذلك ألغى رسول الله التعامل الربوي الذي يؤدي إلى الظلم الاقتصادي وإذكاء أوار الحقد بين مختلف فئات المجتمع ويعوق العدالة الاجتماعية بطرق غير مباشرة . وأوضح رسول الله حقوق النساء بكل وضوح ومنع الرجال من أن يظلموهن استغلالا لضعفهن .

· وأعلن رسول الله أن كتاب الله وسنة رسوله هما المعياران الوحيدان لتنظيم المعاملات بين البشر .. وألزم رسول الله كل الناس بأن يحملوا كل نزاعاتهم في ضوء

(١) مسند أحمد .

أحكام القرآن والسنّة النبوية ، سواءً أكان حكم القرآن والسنّة يوافق هواهم أم لا  
يُوافق .

ومنع رسول الله المسلمين وشدد عليهم ألا يتقاتلو فيما بينهم .. وهذا القتال  
الداخلي هو السبب الأكبر للخلافات داخل الأمة الإسلامية . وقد حفظ الله دينه  
وأحکمه لدرجة أنه لا سبيل أمام الشيطان إلى إفساد الدين نفسه إلا أنه سيدفع  
المسلمين للقتال فيما بينهم على نزاعات تافهة ب مختلف العناوين والشعارات .. ولن  
يصيب المسلمين شيء من الأذى لو نجوا من هذه الفتنة .

ويقتضي الإيمان بالإسلام أن يشعر المسلمون بأهمية أداء الأمانات إلى أهلها .  
ومن أهم هذه الأمانات إبلاغ الرسالة الإلهية إلى الآخرين ، ومنها كذلك إعادة  
أموال الناس إلّهم ، والاعتراف بكفاية الكفاء . فإخلاء المكان والمنصب للكفاء  
هو الآخر من أداء الأمانات . والمسلمون ملزمون بأن يكونوا أمناء ومسئولي في  
كل المعاملات وفي أداء الأمانات .

ونخطبة رسول الله هذه هي إعلان حي ، والحادي الحقيقي هو الذي يسمع إلى  
هذا النداء ويعود من الحج وقد أصبحت هذه الخطبة منهاج حياته كلها .

الفصل الثامن

مسائل الحج

## الفصل الثامن

### مسائل الحج

الحج هو ركن الإسلام الخامس ، وهو فرض على كل مسلم و المسلمة مرة واحدة في حياتهما في حالة الاستطاعة . وهو يؤدي في خمسة أيام ، من ٨ ذى الحجة إلى ١٢ منه ، كل عام .

ويجب على كل من ينوي الحج أن يُحرِّم ، أى ينوي الحج ثم يرتدي ملابس الحج الخاصة ، في مكان معين قبل التوجه إلى مكة ، ويسمى هذا المقام بالميقات ، وميقات القادمين من الشرق ، كالهند وباكستان ، هو قرن المنازل ، وميقات القادمين من ناحية المدينة هو ذو الخليفة ، وميقات القادمين من ناحية الكوفة والبصرة وبغداد هو ذات عرق ، والمحجفة هي ميقات القادمين من تركيا والشام . ولابد من الإحرام عند الميقات قبل التوجه إلى مكة .

ويسمى يوم الثامن من ذى الحجة يوم التروية . ويُسن للحجاج أن يغتسل ليلة الثامن من ذى الحجة أو في صباحه ويتعطر ويتجه إلى الكعبة وهو في ملابس الإحرام ، فيطوف حولها ، ثم يصل إلى مقام إبراهيم صلاة نافلة من ركعتين تسمى بسنة الطواف ، ثم يدعوا ويستغفر ربه . ثم يصل إلى ركعتين بنية الإحرام ، وينوي كما يلى : « اللهم إني أريد الحج فيسره لي وتقبله مني » ، وذلك بقلبه أو بقلبه ولسانه في بعض الآراء .

والحج يردد الدعاء الآتي ابتداء من الإحرام وحتى نهاية الحج : « لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك لا شريك لك » ويؤدى الرجال هذا الدعاء الذي يسمى بالتاليبة بصوت مسموع .

أما النساء فيرددنـه بصوت خافت .

ويجب السعى بين الصفا والمروءة مرة واحدة للمرء أو المفرد خلال الحج ، ويكون أداء قبل الذهاب إلى عرفات أو بعد طواف النفل أو طواف الزيارة ، أما المتمتع فعليه سعيان سعي للعمرـة وسعي للحج لايفعل إلا بعد طواف الإفاضة ومن الأفضل أداء طواف الزيارة بعد العودة إلى منـي ، إلا أنه يجوز للضعفاء أن يؤدـوه مسبقا خوفا من هجوم الناس ، وذلك بعد منتصف الليل .

ويكون الطواف من سبع دورات حول الكعبة وينبغي بدؤه بعد استلام الحجر الأسود أو الإشارة إليه في حالة الزحام ، ثم تقوم بالاضطباع والرمل<sup>(١)</sup> في الدورات الثلاث الأولى . والاضطباع هو أن تُخرج طرفا من رداء الإحرام العلوي من تحت الكتف الأيمن وتوضع على الكتف . والرمل هو مشية الرجل القوى السريعة . ولا اضطباع ولا رمل على النساء . ثم تؤدى دورات الطواف الأربع الباقية بالمشية المعتادة ، وتظل تدعـو ربـك خلال دوران الطواف ، ثم تصـل ركعتـين عند مقام إبراهيم ثم تأـتى الملتمـز وتدعـو الله ثم تتجـه إلى بئـر زمـزم وتشـرب من مائه وتدعـو الله ، ثم تتجـه إلى بـاب الصـفا للسعـى من جـبل الصـفا إلى المـروءة . وتـكتمـل دورـة السـعـى الواحدـة بالسعـى من الصـفا إلى المـروءة ، وتـكتمـل الدـورة الثـانية بالسعـى من المـروءة إلى الصـفا عـائـدا ، وهـكـذا تـكـمل سـبع دورـات . وتـظل مـكبـرا ومـهـلا وداعـيا خـلال هـذه الدـورـات . وينـبـغي عـلـى الرـجـال أـن يـسـعوا بـما يـشـبه السـعـى فـي المسـافـة بـين المـيلـين الـأخـضرـين الـذـين تعـيـنـهما عـلامـات بـارـزة . وينـبـغي أـن تـنتـي دـورـة السـعـى السابـعة عند المـروءة :

ويتجـه الحاجـ إلى منـي فـي صباح الثـامـن من ذـي الحـجـة . وينـبـغي عـلـى الحاجـ أـن يصلـ منـي قـبـل الـظـهـر لـكـي يـؤـدـي هـنـاك صـلاـة الـظـهـر . وـمـجمـوع الـأـيـام الـتـي

---

(١) ذلك يكون في طواف القديم أو العـمرـة فقط .

سيقضيها الحاج بمنى خمسة أيام ، وينبغي في حالة الإمكان أن تؤدي الصلوات الخمس بمسجد الحيف ابتداء من ظهر الثامن من ذى الحجة إلى فجر التاسع من ذى الحجة ، ثم تذهب إلى عرفات في التاسع من ذى الحجة وتقيم هناك .

وقوف عرفة هو ركن الحج الأعظم ، وهنا نجمع صلاته الظاهر والعصر ، ونعود من عرفات في نفس اليوم لنقضى الليلة بالمزدلفة ، ثم نتوجه إلى منى مرة أخرى صباح العاشر من ذى الحجة قبل طلوع الشمس ، وينتظر في هذه الأثناء في ترديد التلبية والتوجه بالدعاء إلى الله تعالى . ومن هذه الأدعية « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، وهو على كل شيء قادر » . ومن السنة أن نبقى بجبل عرفات حتى غروب الشمس ، ثم نتوجه إلى المزدلفة بعد المغرب في العاشر من ذى الحجة ونصلى هناك صلاته المغرب والعشاء جمعا . ويمكننا أن نتوقف خلال هذه الرحلة في أي مكان في الطريق ما عدا وادى محسن . ونعود في العاشر من ذى الحجة نفسه إلى منى مرة أخرى . وتوجد ثلاثة مقامات بين منى ومكة وتسمى الجمرة الأولى ، والجمرة الوسطى ، والجمرة الكبرى ( العقبة ) وترمى هذه « الجمرات » ثلاثة مرات بسبعين جمرات في أوقات مختلفة .

ونحر الأضاحى بعد رمي الجمار ، ثم نخلق رؤوسنا أو نكتفى بتقصير الشعر ونغسل ونبس الملابس العادية ونذهب لنحر الأضاحى . ويمكن توكيل فردان أو ثلاثة أفراد ليقوموا بالنحر نيابة عن قافلة أو مجموعة من الحاج . فليس من الضروري على كل حاج أن ينحر أضحيته بيده . ويتحرر الحاج من محركات الحج بعد الحلق أو التقصير ما عدا الرثث .

والآن يقوم الحاج بطواف الزيارة . ويستحسن القيام بطواف الزيارة قبل غروب الشمس في العاشر من ذى الحجة . ويمكن أداء هذا الطواف حتى قبيل غروب الشمس في الثاني عشر من ذى الحجة . وينبغي على المرأة أن يكثُر من الذكر

والدعاء عند طواف الزيارة . ونعود إلى مني مرة أخرى بعد طواف الزيارة ونقوم برمي الجمرات في اليومين الحادى والثانى عشر من ذى الحجة بعد الروال . والطريقة المستورة لرمي الجمرات بعد العودة إلى مني هي رمى الجمرة الصغرى ثم الوسطى ثم الكبرى . ومن السنة أن نقيم ثلاثة ليالٍ في مني بعد العودة من المزدلفة . ويمكن الانصراف من مني بعد قضاء ليالين بها قبل غروب الشمس في الثانى عشر من ذى الحجة .

لقد أكتمل حجتك هنا وينبغي أن تطوف بالكعبة كل يوم داعيا خاشعا ما بقيت مقاما بمكة بعدها ، وأن تقوم بطواف الوداع عند الخروج النهائي من مكة .

### زيارة المدينة المنورة

ليس من أركان الحج وفراضه أن توجه إلى المدينة أو أن تصلي بالمسجد النبوى وتزور روضة الرسول ﷺ ، إلا أن له ثوابا كبيرا ، وينبغي على الحاج - من باب السنة - ألا تفوته زيارة المدينة المنورة ، وعليه أن يتوجه إلى المدينة من مكة بعد طواف الوداع .

وينبغي على المرء أن يكثر من الصلاة والسلام على النبي ﷺ وهو في رحلته نحو المدينة ، وأن يغتسل بعد الوصول إليها ، ثم يتوجه إلى المسجد النبوى ليصلِّي ركعتين ثم يدعو ربِّه ، وبعد الفراغ من الصلاة والدعاء ، عليه أن يأتى بكل أدب إلى نوافذ المواجهة الشريفة ويصلِّي ويسلم على الرسول ﷺ .

وعليك أن تحاول - أيها الزائر - أداء أكبر قدر من الصلوات في المسجد النبوى خلال إقامتك بالمدينة . وينبغي بعد الفراغ من الصلاة في المسجد النبوى والتسليم على الرسول ﷺ أن تزور مقامات المدينة التي ترتبط بتاريخ الإسلام مثل جنة البقع ، التي هي مقبرة عدد كبير من الصحابة الكرام ومسجد قبا الذي صلَّى فيه رسول الله ﷺ أول ما صلَّى في المدينة ، وجبل أحد الذى وقعت عنده ثانية حرب كبرى في تاريخ الإسلام ، ومسجد القبلتين الذى نزل به حكم تغيير القبلة أثناء الصلاة وغيرها من المقامات والأثار الإسلامية .

## محظورات الحج

والأشياء التالية محرمة على الحاج بعد الإحرام :

- ١ - الجدال والخصام .
- ٢ - الكذب .
- ٣ - الغيبة وذكر الآخرين بالسوء .
- ٤ - القذف .
- ٥ - الكلام البذىء والفاحش ( ملاحظة : هذه الأشياء محرمة في كل الأحوال إلا أن شناعتها تزداد كثيراً خلال الحج ) .
- ٦ - صيد الحيوانات البرية أو تحريض الآخرين على اصطيادها .
- ٧ - حلق الشعر وتقليم الأظافر .
- ٨ - ارتداء الجوارب والخفاف أو أحذية تغطى القدم إلى الكعبين .
- ٩ - ارتداء العمامة أو القلنسوة .
- ١٠ - ارتداء الملابس المخيطة .
- ١١ - اجتثاث الأعشاب والنباتات وكسر أغصان الأشجار .
- ١٢ - استخدام العطر أو وضع الزيت على الرأس .
- ١٣ - المباشرة الزوجية أو الانشغال في أحاديث الهوى .

## ترتيب مناسك الحج

- ١ - الخروج من البيت بنية الحج .
- ٢ - الإحرام عند حدود الميقات .
- ٣ - دخول مكة بعد الاستحمام أو الوضوء .
- ٤ - دخول الحرم وطواف الكعبة بالطريقة المقررة .
- ٥ - السعي بعد الطواف بين الصفا والمروة .
- ٦ - التوجه إلى منى بعد طواف القدوم في الثامن من ذى الحجة .
- ٧ - التوجه إلى عرفات في التاسع من ذى الحجة وجمع صلاتي الظهر والعصر  
بها .
- ٨ - التوجه إلى المزدلفة ليلة العاشر من ذى الحجة وجمع صلاته المغرب  
والعشاء بها ، وقضاء الليل بها .
- ٩ - الذهاب إلى منى في العاشر من ذى الحجة ورمي الجمرات ( جمرة  
العقبة ) .
- ١٠ - نحر الأضاحي وحلق الرأس .
- ١١ - الذهاب إلى مكة لطواف الزيارة في العاشر من ذى الحجة بعد حلق  
الرأس والعودة إلى منى ، وكذلك السعي بين الصفا والمروة إن فاتك السعي في  
الثامن من ذى الحجة .
- ١٢ - القيام بمنى في الحادى عشر والثانى عشر من ذى الحجة ورمي  
الجمرات على الجمرات الثلاث بالترتيب .
- ١٣ - وقد اكتمل حجاجك هنا ويمكنك العودة إلى مكة والطواف حول الكعبة  
والارتفاع من ماء زمزم لشكر الله تعالى على هذه النعمه .

## مصطلحات الحج

- ١ - الآفاق : الحاج القادم من خارج حدود الميقات .
- ٢ - الإحرام : ارتداء لباس بسيط يتكون من رداءين بنية الحج أو العمره .
- ٣ - الاستلام : تقبيل الحجر الأسود أو لمسه .
- ٤ - الضطبع : ارتداء رداء الإحرام الأعلى بإخراجه من الإبط الأيمن ووضعه على الكتف الأيسر .
- ٥ - الإفراد : الإحرام للحج وحده ، ويسمى الذي يؤدى مثل هذا الحج بالفرد .
- ٦ - أهل الحرم : سكان مكة والحرم .
- ٧ - أهل الجل : الذين يسكنون خارج حدود الحرم ولكن داخل حدود الميقات .
- ٨ - التحليق : حلق الرأس بعد نحر الأضحية .
- ٩ - التقصير : تقصير الشعر بعد تقديم الأضحية .
- ١٠ - التقليد : وضع قلادة في عنق المدى .
- ١١ - التلبية : ترديد الدعاء « لبيك اللهم لبيك » .
- ١٢ - التمنع : أداء العمرة قبيل أيام الحج ثم التحلل من الإحرام ، والإحرام من جديد لأجل الحج . ويسمى من يقوم بالمنع بالمتمنع .
- ١٣ - التهليل : ترديد « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .
- ١٤ - الحمرات : هي الحمرات الثلاثة : الحمرة الأولى ، والجمرة الوسطى ، وجمرة العقبة . وهى تقع بالقرب من مسجد الحيف .
- ١٥ - الحجر الأسود : حجر موضوع في الجانب الجنوبي الشرقي من بناية الكعبة .

- ١٦ - الحطيم : أرض ملاصقة للكعبة كانت جزءا منها في قديم الزمان إلا أنها خارجة الآن عن بناتها المكعبة .
- ١٧ - الرفت : فعل أو كلام فاحش ، وهو حرام في أيام الحج .
- ١٨ - الرمل : مشى سريع مع هر الكففين .
- ١٩ - الرمي : رمى الحصى على الجمرات الثلاث وهي الجمرة الأولى والجمرة الوسطى وجمرة العقبة .
- ٢٠ - الركن الأسود : الركن الرابع من الكعبة حيث يبدأ الطواف بعد استلام الحجر الأسود .
- ٢١ - السعى : السعى سبع مرات بين جبلي الصفا والمروة .
- ٢٢ - الشوط : هو طواف واحد حول الكعبة أو سعى واحد بين الصفا والمروة .
- ٢٣ - الطواف : الدوران حول الكعبة في سبعة أشواط . وله أنواع مثل طواف القدم وطواف الزيارة وطواف الوداع .
- ٢٤ - العمرة : وهو الحج الأصغر في غير أيام الحج ، ويكون من الإحرام والطواف والسعى .
- ٢٥ - القران : الإحرام بنية أداء العمرة والحج معا . ويقال لمن يقوم بالقران « القارن » .
- ٢٦ - الكفاراة : نحر حيوان أو التصدق أو الصوم لتلاف بخطأ ما في أداء مناسك الحج .
- ٢٧ - المزدلفة : واد بين عرفات ومنى يبعد مسافة ميلين عن منى في جهة الشرق .
- ٢٨ - المطاف : المنطقة الخالية بالكتيبة ، التي يؤدي عليها الطواف .

- ٢٩ - مقام إبراهيم : حجر وقف عليه إبراهيم عليه السلام عند بناء الكعبة .
- ٣٠ - الملتزم : هو المكان بين الحجر الأسود وباب الكعبة الذي يدعوه فيه الحاج أدعية الحصوصية .
- ٣١ - منى : مكان يبعد عن مكة بثلاثة أميال .
- ٣٢ - الميلان الأخضران : عمودان أحضران بين الصفا والمروة يسعى بينهما الحاج أو المعتمر سعيا سريعا .
- ٣٣ - الميقات : أمكنة محددة للإحرام قبل الدخول إلى مكة بنية الحج أو العمرة .
- ٣٤ - النحر : وهو ذبح الأضحية بمنى بعد الرمي .
- ٣٥ - الهُدُى : وهو الحيوان الذي يصحبه الحاج معه بنية ذبحه في الحج .
- ٣٦ - الوقف : هو الوقوف بجبل عرفات والتوقف في المزدلفة .

## آثار إسلامية ذات معانٍ تاريخية

- ١ - أحد : جبل بالقرب من المدينة حيث وقعت غزوة أحد .
- ٢ - بدر : مكان بالقرب من المدينة حيث وقعت أول حرب مع أعداء الإسلام .
- ٣ - بشر عثمان : بشر قديم بالقرب من المدينة ينسب إلى ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه .
- ٤ - جبل المكبر : جبل بمنى .
- ٥ - جبل الثور : جبل به غار أقام فيه رسول الله ﷺ ثلاث ليال عند الهجرة .
- ٦ - جبل الرحمة : جبل بوادي عرفات ألقى فيه رسول الله ﷺ خطبة حجة الوداع .
- ٧ - جبل فرح : جبل بالمردلفة .
- ٨ - جبل النور : جبل بالقرب من مكة في أعلىه غار حراء .
- ٩ - الجحفة : ميقات القادمين من مصر والشام وأوروبا ويسمى بـ « رابع » الآن .
- ١٠ - جنة القيع : أكبر مقابر المدينة .
- ١١ - جنة المعلى : مقبرة بمكة بها قبر السيدة خديجة وغيرها من الصحابة .
- ١٢ - حراء : غار بالقرب من مكة نزل به أول وحي على رسول الله ﷺ .
- ١٣ - ذات عرق : ميقات الحجاج القادمين من ناحية العراق .
- ١٤ - ذو الخليفة : ميقات القادمين من المدينة واسمه الحالي « بشر على » .
- ١٥ - الشميسية : المكان الذي أخذ فيه رسول الله ﷺ بيعة الرضوان من أصحابه .

- ١٦ - الصفا : جبل بالقرب من الكعبة يبدأ منه الحاج أو المعتمر سعيه إلى المروة .
- ١٧ - عرفات : جبل كبير يقيم فيه الحجاج في التاسع من ذى الحجة .
- ١٨ - قرن المنازل : اسم جبل ، هو ميقات القادمين من ناحية نجد .
- ١٩ - محسر : ميدان بالقرب من المزدلفة نزل فيه العذاب الإلهي على أصحاب الفيل .
- ٢٠ - المدينة : البلدة التى هاجر إليها رسول الله ﷺ وسميت بالمدينة وكانت تعرف قبل هجرته بـ « يثرب » .
- ٢١ - المروة : جبل ينتهى عنده السعى من الصفا .
- ٢٢ - المزدلفة : ميدان بين منى وعرفات .
- ٢٣ - المساجد الخمسة : هي خمسة مساجد في المدينة يقال إنها تقع في المكان الذى حفر فيه الخندق عند غزوة الأحزاب .
- ٢٤ - مسجد الخيف : مسجد بميدان منى حيث يقيم الحجاج في الثامن من ذى الحجة .
- ٢٥ - مسجد قبا : مسجد بالقرب من المدينة ، وهو أول مسجد بني في الإسلام .
- ٢٦ - مسجد القبلتين : مسجد بالعقبة الذى نزل فيه حكم تحويل القبلة .
- ٢٧ - مسجد نمرة : مسجد بإحدى نواحي عرفات حيث يصلى الحجاج صلاته الظهر والعصر جمعاً في التاسع من ذى الحجة .
- ٢٨ - المشعر الحرام : مقام بالمزدلفة حيث يقف الحجاج .
- ٢٩ - مكة : أشهر مدن الجزيرة العربية حيث بني إبراهيم عليه السلام بيت الله .

- ٣٠ - منى : اسم مكان ترمي فيه الحمرات .
- ٣١ - يَلْمَلْمُ : ميقات الحجاج القادمين من ناحية اليمن .
- ٣٢ - قرن المنازل (السيل الكبير) : ميقات أهل الهند وباكستان والشرق .

رقم الإيداع ٥٢٠٧ / ٨٧

الت رقم الدولي ١٤٣١ - ١٣ - ٩٧٧

## هجر

للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان

المكتب : ٤ ش ترعة الزمر - المهندسين - جيزة

المطبعة : ٦ ش عبد الفتاح الطويل - أرض اللواء

٣٤٥١٧٥٦ - ص . ب ٦٣ إيمانة

## هذا الكتاب

هذا الكتاب وقفة عميقه متأنية عند الركين الخامس من أركان الإسلام ، وهو الحج ، وهذه الوقفة العميقه قدمها لنا كاتب هندي مسلم كبير عرفه العالم العربي من خلال بعض أعماله التي قوبلت باستحسان ، وعلى رأسها كتابه المعروف « الإسلام يتحدى » .

فهذه الوقفة لم تأخذ مكانتها من جانب أنها دراسة ملمة بالجوانب الفقهية بطريقه عميقه أو شمولية ، ولم تأخذ مكانتها من جانب أنها تاريخ موسوعي شامل للحج ، ولكن هذه الوقفة - مع ذلك - دراسة متميزة من جوانب أخرى كثيرة لا نعتقد أنها أقل أهمية من الجانبيين الفقهي والتاريخي .

إن « حقيقة الحج » حقيقة عظمى بلا ريب ، ولقد نجح المفكر الكبير « وحيد الدين خان » في تجلية كثير من جوانب هذه الحقيقة بأسلوبه الرائع ، وبتقافذه العميقية الأصيلة والعصرية في سياق واحد .

## دار الصحوة

٧ شن السراي — الميل ، ت : ٩٨٧٩٢٤  
حدائق حلوان . ت : ٦٨٨٠٧١  
القاهرة